AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

مكتبة الجامعة

امرؤ القيس

نقد وتحليل

892.71
I34Ykh

بقلم

رئيف خوري

خريج الجامعة الاميركية، واستاذ الآداب العربية

في كلية الشرق بطرطوس

48335

مطبعة صادر - بيروت

١٩٣٤

Copyright Author. Cat. Sept. 1933

« كان امرؤ القيس من ادباء الملوك ، وكان من اهل بيته وبني ابيه اكثر من ثلاثين ملكاً ، فبادوا وباد ذكرهم ، وبقي ذكره الى يوم القيامة وانما امسك ذكره شعره »

- دعبل -

(كلمة نقلها الاستاذ معروف الرصافي في احدى مقالاته عن الشعر — كتاب سحر الشعر جمع رفائيل بطي ، طبع مصر سنة ١٩٢٢ جزء ١ ص ١٠٥)

« حقوق الطبع محفوظة »

الاهـداء

نتجت هذه الفصول على سبيل الحديث لطلاّب الأدب العربي في كلية الشرق بطرطوس ، فليس احقّ بها منهم ومن مدرستهم الحسناء

رئيف خوري

لائحة المصادر

ديوان امرىء القيس ، مضمن في كتاب العقد الثمين في دواوين الشعراء الستة الجاهليين ، تحقيق المستشرق W. Ahlwardt طبع لندن الطبعة الاولى سنة ١٨٧٠

ديوان امرىء القيس ، جمع حسن السندوبي ، طبع المطبعة الرحمانية ، مصر ، سنة ١٩٣٢ ، وهو المصدر الذي عينا فيه الصفحات لشيوعه وقرب متناوله .

شرح المعلقات ، للزوزني ، طبع مصر ، سنة ١٣٢٨ هـ

〃 〃 للتبريزي ، بتحقيق المستشرق Sir Charles Lyall طبع كلكتا سنة ١٨٩٤

جمهرة اشعار العرب ، لابي زيد القرشي ، طبع المطبعة الرحمانية ، مصر ، سنة ١٩٢٦ .

الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري ، طبعة محمد امين الخانجي ، مصر ، سنة ١٣٢٢ هـ.

طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي ، طبع مطبعة السعادة ، مصر سنة ؟

الاغاني ، لابي الفرج الاصبهاني ، طبعة بولاق ، مصر ، سنة ١٨٦٨ م جزء ٨ خاصة .

العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق القيرواني ، طبعة امين هندية ، مصر ، سنة ١٩٢٥ .

العقد « الفريد » لابن عبد ربّه ، طبع المطبعة الازهرية ، مصر ، سنة ١٩٢٨ ، جزء ٤ ص ٣٥٢ — ٣٥٣ خاصة .

المزهر للسيوطي ، طبع مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٢٥ هـ

خزانة الادب ، لعبد القادر البغدادي ، طبعة عيسى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٩٢٩ ، جزء ٢ خاصة .

سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، لجمال الدين بن نباتة ، طبع محمد علي صبيح ، مصر ، سنة ؟

شعراء النصرانية ، جمع الاب لويس شيخو ، طبع الآباء اليسوعيين بيروت ، سنة ١٩٢٥ ، جزء ١

رجال المعلقات العشر ، جمع الشيخ مصطفى الغلاييني ، طبع بيروت سنة ١٣٣٢ هـ .

المعلقات العشر واخبار شعرائها ، جمع احمد الشنقيطي ، طبع المطبعة الرحمانية ، مصر ، ١٣٤٥ هـ .

الموسوعة الاسلامية [Encyclopedia of Islam] ، مادة امرى القيس [Imru 'lKais] ، غير موقعة . ومادة كندة ، للمستشرق F. Krenkom

الموسوعة البريطانية « Encyc. Brit. ed. II » ، مادة معلقات « Mo'allakat » للمستشرق نولدكي

دين امرى القيس — مقال للاب انستاس الكرملي ، مجلة المشرق مجلد ٨ ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٨٨٦ فما يلي .

مزدكية امرىء القيس مقال للاب لويس شيخو ، مجلة المشرق ، مجلد ٨ ، سنة ١٩٠٥ ، ص ٩٩٨ فما يلي .

الروائع ، جمع فؤاد افرام البستاني ، طبع الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٢٧ ، جزء ٧ .

تاريخ العرب الادبي [Literay history of the Arabs] - lson, Reynold Nicho ، طبع لندره ، سنة ١٩٢٣

في الادب الجاهلي ، للدكتور طه حسين ، طبع مطبعة الاعتماد ، مصر ، سنة ١٩٢٢

ادباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، لبطرس البستاني ، طبع بيروت ، سنة ١٩٣١

واستعملنا مصادر اخرى نشير اليها تامة في موضع استعمالها .

١ — كلمة في مصادر البحث

وجد امرؤ القيس ام لم يوجد ؟ صادقة هذه الاخبار عنه ام كاذبة ام هناك ما هو صادق وما هو كاذب ، وهل لنا سبيل الى تمييز الطرفين ، وما هي العناصر التي عملت على تمعية الحقيقة ؟ قال هذا الشعر ام لم يقله؟ نحل شيئاً ام ضاع له شيء ؟

هذا هو الدرس التاريخي الذي نحاوله في هذه الفصول ، الى جانب الدرس الفني للديوان المنسوب اليه . وما اشد ما يجب ان يكون تحذرنا ، ونحن امام خبط وخلط كثير ، لا نولي وجهنا صوب رأي من الاراء الا اعترضنا رأي آخر ، ولا نعزم ان نسلك نحواً من الانحاء الا خشينا مزالق الطريق ، فحالنا ان نظل في قلق دائم لا يأخذنا القرار ولا نأخذ به . واي عجب ؟! ونحن انما نخترق اربعة عشر قرناً الى مجاهل الصحراء مستدلين برهط كحماد ، والفرزدق الشاعر ، والاصمعي ، وابن الاعرابي ، وابي عمر بن العلاء ، ومحمد بن حبيب ، وابي عبيدة ، وهشام بن الكلبي وابي سعيد السكري ، وابن قتيبة ، ودارم بن عقال من ولد السموأل ، والهيثم بن عدي ، ويعقوب بن السكيت ، وسيبويه عن الخليل بن احمد ،

والمفضل الضبي، وابي عمرو الشيباني، وغيرهم وغيرهم[1]. وهؤلاء لم يكونوا يبعدون عن الشاعر بعدنا في الزمان والبيئة، فهم يبعدون عنه مالا يمكنهم من رواية آثاره على الوجه الابقن، ولا يمكننا من التسليم لهم في جميع ما يروون. هذا اذا لم نحسب حساباً لنفوس تشعبتها العصبية، ولم تكن تحس ما نحس من المسؤولية العلمية، فحورت كثيراً وزورت كثيراً — ولم نحسب حساباً لعقول استهوتها التلاوين القصصية، او قل اتخذت هذه التلاوين التي تستهوي الناس من عامة وخاصة حرفة للارتزاق، فما استطاعت الا ان تخترع، وتمعن في الاختراع، وتضيف الى اولئك المناكيد الذين جعلتهم الشهرة مشغلة الافواه وملهاة الاسماع.

ولكن اليس لنا ما نستوي عليه غير هذه الارض المزلزلة المضطربة؟ يزعمون ان الشاعر زار القسطنطينية في عهد الامبراطور يوستنيانوس، وكان له شأن في بلاط ملكها، فلنسأل مؤرخي الروم لعل فيهم من عرفه او عرف شيئاً عنه. نقول لا، ونقول نعم! انهم يذكرون اميراً عربياً اسمه قيس، فهل هو امرؤ القيس، اسقطوا جزءاً من اسمه لانه بذلك يخف لفظاً على السنتهم، ويسهل تهجئة في لغتهم؟ يجوز. على انا اذ طالعنا ما يكتبون عن قيس هذا وجدنا اشياء لا نعهدها عن امريء القيس الذي في الرواية العربية. ودونك مختصر «فوطيوس» لسفارة «نونوز» الى الحبشة والحميريين وقبائل البادية، كما ترجمه الاب لويس شيخو:

---

(١) اجتهدنا ان نعدد اكثر الرواة الذين عنوا باشياء عن امريء القيس كنسبه واخباره وشعره. وكان مستندنا في تعديدهم كتاب الاغاني، ثم غيره من كتب الادب كالمزهر للسيوطي، ونزهة الالباء للأنباري، وخزانة الادب للبغدادي.

«وقرأت ايضاً خبر سفارة ننوز الى الحبشة والحميريين وقبائل البادية. وكان يتولى هذه القبائل قيس ، حفيد الحارث ، وهو الحارث الذي ارسل اليه انستاس الامبراطور جد ننوز هذا ليعقد معه عهداً . كما ان ابا ننوز المذكور ارسل الى المنذر ليفك من الاسر ، في ايام يوسطينوس القائدين الرومانيين تيموستراتس ويوحنا . واما قيس ، الذي اوفد اليه ننوز ، فكان يتولى امر قبيلتين عظيمتين كندة ومعد . وكان سبق ننوز ابوه ، فجاء الى قيس سفيراً من قبل يوستنيان وضرب معه معاهدة ، واخذ ابنه معاوية كرهن ، فجاء به الى بوزنطية عند يوستنيان . ثم عهد هذا القيصر الى ننوز بان يواجه قيس ، ويأتي به الى الامبراطور ان امكنه . فأتم ننوز اوامر القيصر ، وعاد سالماً الى بلده . ثم يذكر ننوز ان ابراهيم اباه عاد ثانية الى قيس ، واقنعه بالقدوم الى بوزنطية ، فقسم قيس ولايته على القبائل بين اخويه يزيد وعمرو ، ونال من الامبراطور ولاية فلسطين ، وجاء معه بعدد لا يحصى من مرؤوسيه[1]».

ودونك ذكر «بروكوب» لسفارة روماني آخر يدعى «يليان» الى الحبشة والحميريين كما ترجمه الاب شيخو ايضاً :

«ان يجعلوا قيس ، وكان وقتئذ ضليلاً هارباً عن وطنه ، على ولاية معد ، ويضموا قواهم الى قوى جيشه ، فيهجموا على بلاد الفرس . وقيس هذا كان احد رؤساء القبائل ، من نسل كريم ، وذا بطش في الحرب ، وكان قتل اخا لاسيميفاوس الحبشي فهرب من وجه ثأرها[2]»

فهذان النصان عن قيس ، وان كانا ينطبقان في اشياء على امرىء

---

(١) مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ عدد ٨ ص١٠٠٥

(٢) مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ عدد ٨ ص١٠٠٦

القيس ، يختلفان عن سيرته اختلافاً جوهريا . فالنص الاول ينقض ما نعهد عنه من انه لم يتول ملك اسرته ابداً ، بل قضى الشطر الاول من حياته لاهياً بالنساء والخمر والصيد ، وقضى الشطر الثاني ساعياً وراء هذا الملك بين محارب وطريد . وينقض ايضاً ما نعهد عنه من انه لم يعرف القياصرة قبل التجائه اليهم عن طريق الحارث ابن ابي شمر الغساني ، فكيف بعقد المعاهدات بينه وبينهم ! والنص الثاني يأتينا بشيء جديد ، وهو انه انما شرد في البادية ، فراراً من وجه حبشي قتل اخاه .

فنحن اذاً بين ثلاثه امور : اما ان يكون قيس غير امريء القيس ، واما ان تكون الرواية العربية من اساسها مشتبطة ، تجهل ان امرأ القيس رقي العرش ولبس التاج ، ثم هرب ، او اضطر الى الهرب ، لداع لعله قتل اخي الحبشي ، واما ان يكون مؤرخو الروم صوروا غير الحقيقه . وكيف دارت الامور ، فان اسلم سبلنا ان ننسى هذا المصدر الاجنبي نسياناً تاماً ، الا اذا اردنا ان نستخرج منه مقدار اهتمام الرومان بشؤون الجزيرة .

وصفوة القول ، ان هذا البحث قائم على المصدر العربي بما فيه من التشويش ، وقد سبقت لنا الاشارة الى مطاعنه بوجه التعميم ، وفي النية ان نفصل ونخصص حيث يستدعي ذلك البحث .

٢ – التعريف بامرىء القيس [١]

هو شاعر جاهلي من اسرة ملوك كندة ، ولد في منازل الاسديين من ارض نجد ، وسطع في النصف الاول من القرن السادس للميلاد [٢] — لا يختلف في ذلك الرواة . على انهم يختلفون في كثير سوى ذلك اختلافاً مزعجاً لا تلبث ان تدركه اذا سقنا اليك شتى رواياتهم في اسمه ولقبه وكنيته ، وارفقناها بشتى مذاهبهم في تفسير بعض من تلك الروايات .

اسمه امرؤ القيس ، على الاشهر ، ويقال بل جندح ، وليس امرؤ القيس سوى لقب غلب عليه ، ويقال بل اسمه عدي ، ويقال بل مليكة [٣]

---

(١) لا نشير الى المرجع ، في هذا الفصل ، الا حيث نرى ان الخبر شاذ قل ما يعثر عليه الباحث . فاما الاخبار التي تتكرر وتتكرر في جميع تراجم امرىء القيس ، فنضرب عن مصدرها صفحاً لقرب متناولها . (٢) لا نعرف تاريخاً مقرراً لامرىء القيس وليس من الغريب اننا لا نعرف ، لاسباب نظنها واضحة . فاما الذي لا شك فيه انه مات بعد سنة ٥٢٧ م ، اي بعد رقي يوستينانوس العرش . ولقد اقترحت تواريخ عديدة لوفاته منها سنة ٥٤٠ م [نكلسون ص ١٠٤] ، ومنها سنة ٥٦٥ م [شعراء النصرانية جزء ١ ص ٣٠] وجعل ذلك المستشرق نولدكي بين ٥٣٠ م و ٥٤٠ م ، باعتبار ان سنة ٥٣٠ م هي السنة التي شخص فيها الشاعر الى القسطنطينية [مادة امرىء القيس — الموسوعة الاسلامية] . (٣) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٦٥ .

وينشعب المفسرون في تفسير امرىء القيس فئتين ، ففئة تدعي ان القيس بمعنى الشدة عرف بها ، لما اصابه من المكاره ولما ابدى من الصبر والجأش [١] ، وفئة تدعي ان القيس من القياس وان اللقب انما علق به لنضارة جماله بحيث قيس اليه الناس في زمانه فوجد ابدعهم صورة [٢] .

واما القابه فهي الملك الضليل ، لقب به لكثرة تطوافه في الآفاق او لانه اضل ملك ابيه ، ويقول الدكتور طه حسين لانه ضل بن قل ، اي لا يعرف عنه شيء يمكن الاطمئنان اليه [٣] ، ويقال بل ذو القروح لقوله :

وبدلت قرحاً دامياً بعد صحة ،

ويقال بل الذائد لقوله :

اذود القوافي عني ذيادا .

واما كناه فهي ابو وهب ، ويقال بل ابو زيد ، ويقال بل ابو الحارث .

واما اسم ابيه فحجر ، على الاشهر ، ملك بني اسد القتيل ، ويقال بل عمر ، ويقال بل السمط .

واما اسم امه ففاطمة ، اخت المهلهل وكليب ، ويقال بل تملك ذكرها في شعر له :

الا هل اتاها والحوادث جمة بان امرأ القيس بن تملك بيقرا؟

ولا ياخذك سوء الهضم امام هذا الخليط ، فتنقم ، وتدفعك النقمة الى البت انك في معرض اسطورة من الاساطير ، فليس الاختلاف في

(١) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٦ (٢) خزانة الادب جزء ١ ص ٢٢٦
(٣) في الادب الجاهلي ص ٢١٤

الاسماء بدال على شيء . واذا كان الرواة قد اختلفوا في اسم ابي عمرو بن العلاء ، العالم الشهير ، على احد وعشرين قولاً[١] ، مع ظهوره في عصر التدوين والتقييد بالكتابة ، فاخلق بهم ان يختلفوا في اسم امرىء القيس ، مع تضاؤله في ابعاد الزمن . ولعل هذا التشويش المثير راجع الى كثرة من عرفوا بهذا الاسم[٢] ، والى شهرة صاحبنا من بينهم . فنحن على اقل تقدير ، عالمون ان السمط ليس ابا لامرىء القيس صاحبنا ، وانما هو اب لامرىء قيس آخر ، قرن اسمه صاحب العقد باسم رجاء بن حيوة الفقيه[٣] . ونحن ، عالمون ان الذائد ليست لقباً لامرىء القيس بن حجر ، بل لامرىء القيس بن بكر[٤] ، حملت على شاعرنا هي والابيات التي تتصل بها . ويلوح لنا ايضاً ان الرواة اشتد تنافسهم حول هذه الشخصية لما لها من صوت ملء آفاق الادب ، وكره الواحد منهم ان يمر بها دون ان يقذف كلمة تبقى له عنها ، فابتدعوا ، وتحذلقوا في تفسير ابتداعاتهم ، حتى انك لا تطيق الاطلاع عليها دون الاغراق في الضحك . فليست القيس بمعنى الشدة ، وليست القيس من القياس ، وانما هي اسم صنم جاهلي معروف سمي به كثيرون واضيفت اليه قبيلة عبد القيس ، كما سقط الينا اسماء اخرى مضافة الى غيره من الاصنام كتبع اللات وعبد العزى . واغلب الظن ان الاصمعي انما كره ذكر الشرك ، او التذكير به ، في عهد التوحيد عندما ابى ان يقرأ « يا امرأ القيس

---

(١) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٦٣ (٢) المزهر للسيوطي جزء ص ٢٨٤ . هناك ستة عشر رجلاً باسم امرىء القيس فقط ! (٣) الاغة الفريد جزء ٢ ص ٢٤٨ (٤) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٨٤

فانزل » واصر على قراءة « يا امرأ الله فانزل[١] » .

وكذلك يبعد ان يكون الشاعر ابن فاطمة ، اخت مهلهل وكليب ويبعد ان يكون المهلهل هو الذي نشأه على الشعر واخذ يده في مسالك القوافي كما يزعمون[٢] . ولمحة واحدة تكفي للشك في هذا ، اذ ليس من المعقول ان يكون المهلهل خاله ، وامامه في فن القصيد ، وفارس البسوس المغوار ، ثم لا يذكره ولا يشير اليه في جميع ما تبقى لنا من آثاره . واعجب العجب ان اولئك الرواة الذين يدعون ذلك ، لا يترددون ان يلصقوا به قصيدة تشير الى خال له اسمه ابن كبشة :

خالي بن كبشةَ قد علمتُ مكانَهُ

وابو يزيد ورهطُه أعمامي

فغالطوا انفسهم بانفسهم[٣] وعندنا في وقوع هذا الخطأ ظنٌّ معقول ، او قريب من المعقول ، وهو كثرة اصهار ملوك كندة الى الربعيين ، لعوامل سياسية اذ كانوا ملوكهم او ملوك بني وائل منهم على الاقل ، ولذلك سأل ابو بكر قوما زعموا انهم من هامة ربيعة العظمى ، انتم اخوال الملوك من كندة[٤] ؟ واذا كان ملوك كندة جروا على هذا الاصهار ، فليس ما يمنع ان يكون حجر جرى عليه ايضاً — هكذا قال الرواة او هكذا يجب ان يكونوا قالوا . ولكن الى اي قبيلة من ربيعة

---

(١) مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ عدد ٨ ص ٨٨٧

(٢) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٨

(٣) راجع [في الادب الجاهلي ص ٢١٨ وادباء العرب ص ٤٠]

(٤) العقد الفريد جزء ٢ ص ٢١١

اصهر حجر ، او يحسن بهم ان يجعلوه يصهر ؟ الى تغلب عامة ، والى المهلهل خاصة ، لانهم بذلك يستطيعون ان يؤولوا شاعرية امرىء القيس تاويلا يسيراً ، اخذها عن خاله ورائة او اكتسبها تلقينا . وقد يكون اصل هذه القرابة العصبية القبلية ، ذلك لان امرأ القيس حامل لواء الشعراء[1] واذا كان التغلبيون لا يستطيعون حشره معهم ، ونسبه اليمني بين ، فلا اقل من ان يجعلوا امه تغلبية ، ويكتسبوا شرف حمل وارضاع الشاعر الكبير .

هذا ، ونرجيء الايغال في التحقيق الى فصل آخر ، لان جل ما نرمي اليه هنا التعريف الوجيز بالشخص الذي يدور عليه البحث . ومن الخير الآن ان نتلمس شيئاً من تاريخ اسرته الكندية ، والمملكة الموسومة باسمها ، فنزداد تهيؤا لفهم حياته ونخل حوادثها ، وبحث شعره ، وعلاج الشبهات التي تحوم حوله .

(١) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٩٦

٣ – اسرته ومملكة كندة

لا تتردد ساعة في تقرير الشرف الذي كانت تتمتع به اسرة امريء القيس في الجاهلية . فيكفي ان يكون احدها مرثد — من اجداد الشاعر في اليمن — سمي بذلك لانه كان يقال ارتعنا فيقول ارتعتكم ارض كذا [١] ، وهو شأن من له قدرة سلطان . ويكفي ان يختار التبابعة احدها المعروف بآكل المرار — من اجداد الشاعر ايضاً — ملكاً على بني بكر من عرب الشمال ، فينتقل باهله الى ديارهم وينشيء المملكة الكندية [٢] . ويكفي ان ترسخ هذه الولاية حتى تكافح اللخميين في الحيرة ، وتتمكن في وقت من استعادة ما كانوا اغتصبوه من ارض بني بكر [٣] ، وفي وقت آخر من طرد المنذر الثالث ابن ماء السماء ، وتجريده من عرشه بحيث اقتضت اعادته اليه بداً كيد كسرى انو شروان [٤] . واذ قد ذكرنا المناذرة والاكاسرة فلا نجد بداً من الالمام ببعض حالة العرب السياسية في ذلك العصر .

---

(١) خزانة الادب ، جزء ١ ص ٢٢٦
(٢) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٦
(٣) » » » »
(٤) نكلسون ص ٤٢

لم يكونوا منعزلين عن العالم كما قد نتوهم ، ولم يكونوا قادرين على الانعزال . فان موقعهم بين امبراطوريتين ضخمتين متشاحنتين كالفرس والروم ، وطبيعة بلادهم الصحراوية التي لم تجعل لهم مندوحة من التعدي على الضواحي ، والانقضاض على سكانها الآمنين كانت تلجئ هاتين الى التدخل الدائم في شؤونهم . فاصطنعت كلتاهما ترساً لها منهم صدرته على التخوم في وجه عدوتها ووجه البداة المتغززين . وهكذا قامت دولة المناذرة في جانب الفرس ، ودولة الغساسنة في جانب الروم ، واشربتا كرهاً لبعضهما كسكره سيدتيهما او اسوأ (١) . ولن ننسى المملكة الثالثة التي كان لها تأثير بليغ في الحالة ايضاً . وهي ليست اجنبية كاللتين فرغنا من ذكرهما ، وانما هي يمنية في جنوب الجزيرة يرأسها تبابعة حمير وربما خيل لنا ان قسطها من النفوذ اوفر الاقساط لانها عربية ، وذلك ادعى لحب العرب لها . غير ان العصبية العدنانية القحطانة كانت تقطع حتى وشائج الرحم . ولا ندري كيف وقع لابي عبيدة ان بني بكر بن وائل حين لح بهم الشقاق وخبطتهم الفتنة ذهب رؤساؤهم مختارين الى تبع وسألوه ان يتولى امرهم ، فملك عليهم امير كندة المعروف بآكل المرار (٢) كما اسلفنا . وهو امر لا يكاد يعقل من قبيلة عدنانية . ونحن اذا تعجبنا هذا التعجب ، فليس لانا ننكر ان آكل المرار تولى بني بكر ، وغير بني بكر ايضاً ، وانشأ مملكة كندة ، بل لان لنا في تعليل ولايته مذهباً غير مذهب ابي عبيدة ، وهو ما تنقل الرواية من ان حسان تبع غزا غزوة الى اواسط الجزيرة واخضع شتى قبائلها ، فلما عاد

---

(١) نكلسون ص ٣٣

(٢) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٦

اقام عليهم آكل المرار الكندي عاملاً له حوالى سنة ٤٨٠ م [١] .
وصارت هذه القبائل تدفع الاتاوة في كل عام الى موفد من التبابعة انفسهم او من الكنديين عمالهم ، كما يستفاد من هذا الحديث لابي عمرو بن العلاء بصدد الكلام عن يوم خزازى « كان الرجل من اليمن يأتي ومعه كاتب وطنفسة يقعد عليها فيأخذ من اموال نزار ما شاء [٢] » .
ويوم خزازى هذا لم يكن الا ثورة من العدنانيين على القحطانيين ، وفوز العدنانيين فيه لم يكن الا تحرراً لهم من دفع الاتاوة . وكأني بظل كندة تقلص اثر هذا الاندحار ، وكاني بالتبابعة احسوا ما لحقهم من الخسارة المادية والمعنوية ، فظلوا يرتقبون الفرصة لاستدراك ما افلت منهم حتى كان ما يروى من تضعضع البكريين ، ونستطيع ان نقول التغلبيين ايضاً اذ لا نخال ذلك الا اشارة الى حرب البسوس ، فتدخلوا في الامر ، او تدخل الكنديون زمن الحارث بن عمرو [٣] ، واعادوا جاه سلطانهم وجددوا وزن الحميريين . هذا ، ولا تخطر لنا خطرة شك ان مملكة كندة انما كانت محاولة من التبابعة لحفظ التكافؤ السياسي في شمالي الجزيرة بينهم وبين امبراطوريتي الفرس والروم . وخليق بدولة هذا باعثها ان تكون على غير صفاء مع دولتي الغساسنة والمناذرة كما

---

(١) الموسوعة الاسلامية ـ مادة كندة

(٢) العقد الفريد ، جزء ٣ ص ٣٦٥

(٣) ينقل عبد القادر البغدادي في سياق كلامه عن المهلهل وحرب البسوس ان الحارث بن عمرو بن معاوية الكندي ، وهو جد امرىء القيس بن حجر ، راسل التغلبيين والبكريين ، عندما ضجروا من الحرب ، في الصلح والتمليك عليهم . ويردف انه افلح في قصده ، وشغلهم بحرب اللخميين من [هكذا في الاصل ولعلها و] بني غسان ملوك الشام [خزانة الادب جزء ٢ ص ٢٨]

كانتا هما على غير صفاء .

وليس علينا بعد ان ارخنا نشأة هذه المملكة واسبابها ، والظروف التي احاطت بها ، الا ان نتقدم خطوة اخرى فنؤرخ ازدهارها الباهر على يد الحارث بن عمرو ، والد حجر وجد امرىء القيس

المعنا في صدر هذا الكلام عن ولاية كندة انها منذ فجرها استطاعت بحسن تدبير آكل المرار ، ملكها الاول ، ان تتغلب على ما كان المناذرة احتلوه من ارض بني بكر . وكذلك المعنا في نهاية الفقرة السابقة الى الموقف العدائي الذي اتخذته من ولايتي المناذرة وغسان . ولكن اخبارها مع الغساسنة لا تهمنا كاخبارها مع المناذرة، وهي كثيرة تعود كثرتها الى تقاربهما في البلاد وتتابع اصطدامها في المصالح . والذي لا شك فيه ان هاتين الدولتين كانتا ابداً مبثوثتي العيون احداهما على الاخرى، قائمتين على السلاح في اهبة الهجوم عند ما يناسب الجو . وقد اتفق ان خدمت الظروف كندة احسن خدمة ، في زمن الحارث بن عمرو ، على المناذرة في زمن المنذر الثالث ابن ماء السماء . وذلك ان كسرى قباذ ، ملك الفرس ، غضب على صنيعته المنذر لانه لم يجذ نواميس مزدك المنعوت بالزنديق كما جذها هو[1] . فاهمله وازور عنه ، فاستغل الحارث ذلك اعجل استغلال ، وكان قد اشتد ازره بما استرجع من السلطان على بني وائل ، فاغار على خصمه الالد وخلعه ملكه الذي قلنا انه ظل مشرداً عنه حتى عهد كسرى انو شروان . ولعل ما تحكي الرواية من ان نزاراً تفاسدت ، وعمدت الى الحارث تسأله اصلاح شأنها

---

(١) نكلسون ص ٤٢

فوزع اولاده على قبائلها[١]، يكون اقرب الى المعقول اذا عكس تماماً فقيل ان الحارث قويت شوكته بهذا النصر المبين ففرض اولاده على نزار فرضاً . ولكن النعمة لم تطل عليه بعد بلوغه هذا المبلغ ، لان انو شروان خاف مغبته اذا هو ارسل له الجبل على غاربه بعد ان فعل بعامله المنذر ما فعل . فطلبه ، ولج في طلبه ، فخرج الحارث هائماً على وجهه ، خائفاً من سطوة الملك ، حتى استقر في بني كلب[٢] . وتتبعه المنذر ليشفي منه غله فلم يدركه ، غير ان بني تغلب وهم في عسكره ، وكأنهم كانوا قد انتقضوا على ملكهم السابق ودخلوا في طاعة عدوه ، ظفروا بثمانية واربعين من بني آكل المرار ، فقتلوهم في الموضع المسمى جفر الاملاك[٣] .

وهنا لا بد للذاكرة ان تكر نحو التبابعة ، وتدهش من تخلفهم عن صاحبهم هذا التخلف الطويل . ولكن رحم الله التبابعة ، لقد كان الحبش ازالوهم[٤] ! ونحن نرى ان هذا المصير الذي انتهت اليه كندة وثيق العلاقة بزوالهم . وقمين بكندة ان تتلاشى بتلاشي مصطنعيها والمناذرة ، ومن ورائهم الفرس ، يلحون عليها اشد الالحاح . وقمين بالقبائل الخاضعة لاولاد الحارث ان تتمرد عليهم بعد ذهاب ملكهم — وهل انتقاض بني اسد على حجر وفتكهم به سوى مظهر من مظاهر

---

(١) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٦-٧
(٢) » » » ص ٧
(٣) » » » »
(٤) وذلك حوالى سنة ٥٢٥ م — راجع نكلسون ص ٢٦ - ٢٧

هذا التمرد[١] ؟ اضف الى ذلك ان افراد الاسرة المالكة فتنهم مجال الحرية الذي اتسع لهم بفرار ابيهم ، وارتفاع رقابة اسيادهم عنهم ، فطمع كل منهم بملك صاحبه ، واندلعت الالسنة بينهم بالوشايات ، وتحاقدوا ومشوا الى بعضهم بالسيوف كما هو مسطور في خبر اعمام امرئ القيس[٢]

ولم يكن لكندة امل بالتجدد لان التبابعة لم تقم لهم قائمة بعد الفتح الحبشي الا بمظاهرة الفرس ، ولم تثمر مساعي ابن ذي يزن سوى استبدال مسيطر اجنبي بآخر اجنبي .

(١) ابن قتيبة ص ١٦-١٧

(٢) شعراء النصرانية جزء ١ ص ١-٥

٤ — قصة حياته [1]

ولنعمد الى قصة حياته ، ولنسردها كما وقعت في كتب الادب بغير تعليق ، لا لانا نقبلها بقضها وقضيضها ، بل لانا لا نرى من الحكمة ان نمضي في نقدها قبل ان نستوعب جميع ما يقول الرواة .

نعرف ان هذا الشاعر اصغر ابناء حجر ، من ولد الحارث آخر ملوك كندة الذي تحدثنا عنه مليا . ونعرف ايضا ان سيرته تنقسم الى عهدين رئيسيين يفصلهما مقتل ابيه في بني اسد . فاما العهد الاول ، وعليه مدار الكلام الآن فلا نعرف بدءه لان المصادر ، على اطلاقها ، تغفل تاريخ ولادته . ثم هي لا تذكر من طفولته او حداثته شيئا سوى انه قضى زمن رضاعه في بني حنظلة مع ظئر منهم ، وانه تلقن الشعر من خاله المهلهل . فلذلك ترانا مكرهين ان نتعدى هذين الطورين الى شبابه حين تستفيض الرواية عنه ، فيظهر لنا فتى شاعراً وضيء الطلعة ولكن على غير وفاق مع والده ، حتى ليحكي ان والده دفعه الى عبد من عبيده اسمه ربيعة وامره بقتله ، ففطن العبد الى ان مولاه انما اصدر حكمه القاسي في ساعة غيظ عظيم ، فقتل جؤذراً مكانه ، واستبقاه في

(١) بنينا هذا الفصل على شعراء النصرانية للاب شيخو ، لانه اوسع مجموعة لاخبار امرىء القيس ، ولم نشر الى المرجع الا حيث خرجنا عن هذه المجموعة .

الخفاء . وسبب هذا الخلاف الشديد بينهما على قول ، انفة الوالد من صناعة الشعر لابنه ، وعلى قول آخر عشق الولد لابنة عمه عنيزة[١] ، او لفاطمة بنت العبيد العذرية[٢] ، وتعقبه لها ، وارساله الاغزال فيها ، وعلى قول آخر ، تعهره واجتراؤه حتى على التعرض لامرأة ابيه ام الحويرث[٣] .

ومهما يكن من امر[٤] ، فنحن في هذا الطور امام مترف من ابناء الملوك ، متكئ على مال امرته ، لا ينفك متفسحاً في احياء العرب مع اخلاط من الشذاذ ، ينزل بهم حيث يطيب المرتع عند غدير او محلة صيد فلا يزال يبسط لهم موائد الطعام والشراب ، ويشاركهم فيها حتى يحمله نضوب الغدير او نفاد الصيد على الاقلاع والتماس موضع آخر . وكذلك نحن امام فاسق ، تبع نساء ، متخلع فيهن ، شره اليهن ، يلتقط خير ورود شرذمة منهن الى غدير في دارة جلجل ، او غير دارة جلجل فيسبقهن الى الموضع ، ويكمن لهن ، حتى اذا تعرين للاستحمام ، وانغمسن في الماء بغتهن من مكمنه ، وجمع ثيابهن ، وقعد عليها في شط الغدير مقسماً ان لا يبرح مقعده حتى يصعدن اليه عاريات واحدة واحدة ، ويستلمن ثيابهن ، ويرتدينها على مرأى منه . فيتبرمن ويتضايقن ، ثم يحتلن عليه باللطف رجاء ان ينصرف عنهن ولكن على غير جدوى .

---

(١) رجال المعلقات العشر ص ٩١

(٢) الاغاني ، جزء ٨ ، ص ٦٠

(٣) خزانة الادب جزء ١ ص ٢٥٥

(٤) لعل ابن رشيق مصيب حين يأبى ان يكون سبب الخلاف مجرد قول الشعر ، ويرد الامر الى تهتك الشاعر ، وتشبيبه بنساء ابيه ، واشتغاله بالخمر والزنى عن الملك والرئاسة . [العمدة جزء ١ ص ٢٠ ـ ٢١]

حتى اذا مال النهار ، ولم يجدن بداً من النزول عند رغبته ، مشين اليه في عريهن ، واخذن ملابسهن ، وتسترن ثم اقبلن عليه يعاتبنه ، ويذكرن له تاخرهن وجوعهن ، فيعقر لهن ناقته ويطعمهن ، واذ يحين وقت الانصراف ، وليس لديه مركوب ، يفرض نفسه على احداهن فاطمة او عنيزة ، وهي المقصودة بالذات ، وتسانده بقية العذارى في تحقيق بغيته ، فيعتلي معها البعير الى خارج الهودج ، ويروح مدى الطريق يلثمها ويشمها[1] ذلك هو العهد الاول من حياة هذا الشاعر الذي يقال انه نظم فيه معلقته او بعض معلقته ، وتلك هي صورته باسمة لاعبة ، ناضرة ، صافية لا تشوبها شوائب الكدر .

ولكن ما اسرع ما يتبدل هذا الطريق المفروش بالورد ، وما اسرع ما يخشوشن هذا المهد الحريري الوثير ، فيضمحل ملك التبابعة ، ثم يغضب كسرى على جده الحارث ولا ظهير له ، فيهرب ويستخفي في احدى القبائل . ثم لا يلبث بنو اسد ان ينتهزوا تضعضع الحال ، ويمتنعوا من دفع الاتاوة المترتبة عليهم لابيه حجر ، فينشب الخصام بينهم وبينه ، فيأتي بسراتهم ، ويشهرهم ضرباً بالعصى حتى يسموا «عبيد العصا» ، ويحبس بعضهم ، فيستكينون له ، ويدفعون الاتاوة ، فيرق لهم ويرفع عنهم كابوس عذابه . ثم يسجع لهم كاهنهم بقتله فلا تمضي برهة الا وهو طعين ذبيح . ويصل الرسول بالخبر المشؤوم الى الولد الشارد ، وهو يلعب الشطرنج ، ويعلمه بالفاجعة ، فلا يبدي لها تأثراً ويستمر في لعبه ، فيعطيه الرسول وصية ابيه ، وكان الملك القتيل امره

---

(١) العقد الفريد جزء ٤ ص ٣٥٢

ان يطوف بها على جميع اولاده فلا يسلمها الا لمن لا يحزن او يجزع ، لانه اخلقهم بمناهضة العدو واخذ الثأر .

وهنا يشعر الخلي الذاهل عن مشاق الحياة ومضانكها بالواجب الضخم الذي عليه ، ويوقن ان لا مندوحة له من تطليق غيه ولهوه الى ما هو اوقر واكثر جداً فيهتف « ضيعني ابي صغيراً وحملني دمه كبيراً ! لاصحو اليوم ولاسكر غداً ! اليوم خمر وغداً امر » وهكذا يختلي الى كؤوسه ودنانه سبعاً ليودعها الوداع الاخير ، واذ يصحو يقسم « ان لا يأكل لحماً ، ولا يشرب خمراً ، ولا يدهن بدهن ، ولا يلهو بلهو ، ولا يغسل رأسه حتى يدرك ثأر ابيه ، فيقتل من بني اسد مائة ، ويجز نواصي مائة » ويشرع باعداد العدد للخصام المتوقع ، وفيما هو يخرج ما في خزائن ابيه من السلاح ، يطلع عليه وفد من بني اسد للمفاوضة في الصلح ، ويخيرونه بين ثلاثة امور : اما طلب اشرف بيت في بني اسد يقتادونه اليه فيشفي منه نفسه ، واما فداء من نعم بني اسد فهي الوف واما موادعة حتى تضع الحوامل ويتأهبوا للبلاء ، فيأبى الصلح بوجه من الوجوه ، ولكنه يرضى موادعتهم الى حين . وينصرف الوفد ، ويستمر الشاعر في اعداد العدد ، ثم يضرب في القبائل مستنصراً ، مؤلباً ، مستاجراً من يشد ازره . فيلجأ الى بني بكر وتغلب ، الذين قدم آكل المرار اول جدوده في الشمال ملكاً عليهم ، فيسيرون الى بني اسد ، ويواقعونهم حتى يكثروا فيهم القتلى والجرحى ، ويحجز بينهم تكاثف الظلام . ثم يهمون بالرجوع ، اعتقاداً منهم ان صاحبهم اصاب ثأره ، ولكنه لا يكتفي بذلك ، فينفضون عنه . ثم يلجأ الى اهله من اليمن ، ويستصرخ الازد فلا يلبون له نداء . فيلجأ الى ذوي قرباه

من بني حمير ، فيمدونه بخمسمائة رجل ، ويستأجر غيرهم ، ثم يعود طالباً بني اسد . وهنا يقع ما تسوق الرواية من انه مر بتبالة على صنم يدعى ذا الخلصة ، فمال اليه ليكشف عن رأيه في استقصائه للثأر ، واستقسم عنده بقداحه الثلاثة : الآمر والناهي والمتربص ثلاث مرات ، وفي كلها لم يكن يخرج اليه سوى الناهي . فاغتاظ وكسر قداحه ، وقذف بها وجه الصنم قائلاً : « ويحك لو ابوك قتل ما عتقني ! » وتابع سيره حتى انتهى الى بني اسد وتغلب عليهم مرة ثانية .

ويتنبه المنذر الثالث عدو جده الاكبر ، الى خطر هذا الامير المغامر المحارك ، الذي يمثل بقية كندة ، ويخشى تفاقم شره فينبري له ويطارده في كل فج عميق . فيتشتت عنه من التف عليه من الحميريين ، ويضطر الى النجاة في عصبة من بني آكل المرار ، حتى ينزل بالحرث بن شهاب من بني يربوع بن حنظلة ، ومعه ادرع اسرته الخمسة الشهير امرها . فيبعث المنذر الى الحارث متوعداً متهدداً اذا هو لم يسلم بني آكل المرار ، فيسلمهم وينجو الشاعر مع هند بنته او اخته ، وآخر من ذوي قرباه اسمه يزيد ، وهو لا يزال محتفظاً بالادرع والسلاح ، وبمال كان بقي معه ويستجير بعدها بابن عمة له اسمه عمرو ، ويذكر له رحمه ويمدحه ، فيجيره زماناً ولكن المنذر لا يألو جهداً في تحسس اخباره حتى يعلم مقره ، فيطلبه ، فينجو ايضاً ، ويتعلق بحبال هانيء بن مسعود ، من رؤساء بني شيبان ، فلا يجد عنده متعلقاً . فيأوي الى سعد بن ضباب ، سيد اياد ، ويحكي انه من انسبائه ، فيؤويه ، فيمدحه ويهجو ابن مسعود . ثم يتحول عنه الى ارض طي فيتنقل بين رؤساء اخذاها وبطونها طويلاً : فمن المعلى بن تيم بني جديلة ، الى احد كبراء بني نبهان ، الى عامر بن جوين من

خلعاء طي وفتاكها . وكان هذا شاعراً ايضاً ، فاكثر في نظمه من ذكر هند ، اخت شاعرنا او بنته ، فلم يأمن شره ، وتجاوزه خلسة الى رجل من بني ثعل . فوقعت الحرب بين عامر بن جوين والثعلي ، فكادت تنشق طي من اجله ، فخرج من ارضهم بعد ان تزوج منهم ام جندب ، وطلقها لتفضيلها علقمة الفحل عليه في مساجلتهما في وصف الفرس .

واخيراً الى اين يلجأ ؟ لقد ملته القبائل وكادت تلفظه الصحراء! تزعم الرواية انه حل برجل من بني فزارة حلولاً موقوتاً ريثما يفكر في مصيره ، فكان ان نصحه الفزاري ان يلجأ الى السموأل بتيماء واوصله الى رجل آخر من بني فزارة ، شاعر يأتي السموأل وينشده فيعود بالجوائز الطيبات . فصادفت النصيحة هوى في قلب شاعرنا ، فنظم قصيدة قافية ، ورافق الفزاري الى صاحب الابلق . فاكرم مثواه واحله عنده ما شاء . ولكن الامير المشرد كان لم يزل توّاقاً الى الاخذ بثأر ابيه ، حناناً الى عرش اسرته . فطلب اليه يوماً ان يسأل الحارث ابن ابي شمر الغساني ان يعرفه الى قيصر الروم ، يوستنيانوس ، ويبسط له شأنه ففعل السموأل ، وفعل الحارث ابن ابي شمر ، واهتم يوستنيانوس بشأن هذا الامير العربي . وبلغ الشاعر خبر اهتمامه به ، فاستودع السموأل الادرع والسلاح وهنداً ويزيد ابن عمه ، وشخص الى القسطنطينية . وتسوق الرواية ان مكانته علت في البلاط ، وكادت تتم له امنيته ، لولا ان احبته ابنة القيصر واحبها ، واندس له الطماح بن قيس من بني اسد ، فوجد ريح هذا الحب ، ووشى به الى الملك ، فعلم الشاعر بالوشاية ولخاف العاقبة ، فهب من القسطنطينية متسرعاً ، بجيش كان اعده له القصر او بغير جيش ، فما هو ان وصل انقرة حتى ادركه رسول ر

البلاط الامبراطوري بحلة وشي مسمومة منسوجة بالذهب ، زعم ان مولاه خصه بها حبا واكراما ، فلما لبسها في يوم صائف تفطر جسده وتهرأ لحمه فهلك .

ولا بأس اذا اوردنا في ختام هذه القصة ما يزعم الرواة من ان الشاعر عندما اخذه النزع ، بصر بقبر في سفح جبل اسمه عسيب ، فسأل عنه ، فقيل له انه قبر امرأة من بنات الملوك . فاوصى ان يدفن الى جنبها ، وانشأ ابياتاً منها البيت المشهور :

اجارَتنا انا غريبانِ ها هنا وكل غريبٍ للغريب نسيبُ

ولا بأس اذا زدنا ما يزعمون من ان ملك القسطنطينية ، عندما سمع بوفاته ، حزن ، وامر ان ينحت له تمثال ، وينصب على قبره .

٥ — تحقيق حياته

ولندخل الآن هذه القصة التي بسطناها للشاعر ببعض التفصيل ، ولنأخذ المضطرب منها فنطرحه ، والثابت فنستبقيه . غير انك قد تعلم ان تراخي الزمان ، وقلة المصادر ، وتعذر رد الاخبار الى اوقات نشوئها وسيرها في الناس ، لا تجعل ما ننوبه من التحقيق يسيرا . وكم كنا نود لو نستطيع درس كل خبر على حدة ، ورفضه او قبوله ، استناداً الى تحزب صاحبه او نزاهته ، وبعده في الوقت او قربه . ومع هذه الصعوبات فلن نعدم ادلة اخرى على مواضع الشبهات .

نستهل بالترجيح ان امرأ القيس قد وجد حقاً ، وليس اختلاف الرواة في اسمه ولقبه وكنيته ، بالامر الذي يعلق عليه كبير اهمية ، كما اسلفنا . فقد كاد الرواة يختلفون في كل شيء ، واذا اجزنا لانفسنا ان نجعل من ذلك حجة للانكار لم يثبت لنا شيء ما . ولا نكتفي في برهان ترجيحنا هذا بما يقال من ان النبي وعمر وعلياً[1] وكثيرين غيرهم ذكروه وابدوا فيه آراء لا تزال معروفة ، فقد تكون من افتعال الرواة قصدوا بها اجتلاب الاسماع وتنبيهها اليه ولكنا نرجع الى حالة العصر السياسية كما صورناها ، ونتساءل هل تلائم ما عرفنا من سيرة هذا الشاعر ؟ لا نكاد نشك في ذلك ! واي شيء اقرب من ان تسقط مملكة كندة ، ويهوي

(١) العمدة لابن رشيق جزء ١ ص ٥٩

عرشها ، وليس لها من يسندها امام ضغط الفرس واللخميين ؟ واي شيء اقرب من ان يقوم امير من بقايا امرائها ، طماح الى التاج ، يستصرخ القبائل ، ولا يزال يجاهد خصومه حتى تنفرط عنه جموعه ، رغبة او رهبة من المناذرة والاكاسرة ؟ واي شيء اقرب من ان يقع هذا الامير العاثر على اعتاب قيصر الروم ، وهو عدو كسرى ومنافسه في بسط السيطرة على الجزيرة العربية ؟ واي شيء اقرب من ان يحتفي به القيصر ، وينوي مساعدته ، وهو قد يستعمله ، وينتفع بولايته في جميع مصالحه ، وما اكثرها في حروبه مع الفرس !

على انا وان آمنا بحقيقة امرىء القيس ، فلا سبيل لنا ان نومن بتفاصيل حياته كلها ، لان منها ما هو واضح الاصطناع لما فيه من نسق الفن القصصي ، ومنها ما هو ظاهر الشبهة لما فيه من العصبية القبلية . فلنفصل ما نعني :

تسوق الرواية عنه عشقاً لابنة عمه . وعشق ابنة العم يكاد يكون لونا لازماً لجميع الشعراء ، فامرؤ القيس احب ابنة عمه ، وعنترة احب ابنة عمه ، ومجنون ليلى احب ابنة عمه ، وعروة ابن حزام احب ابنة عمه وجميل بثينة احب ابنة عمه ، وغيرهم وغيرهم . واننا لا نكاد نقف حيال هذا اللون المشترك الا موقفنا حيال التأليف الروائي .

وتسوق الرواية انه « آلى بألية الا يتزوج امرأة حتى يسألها عن ثمانية واربعة واثنتين . فجعل يخطب النساء ، فاذا سألهن عن هذا ، قلن اربعة عشر . فبينا هو يسير في جوف الليل ، اذا هو برجل يحمل ابنة له صغيرة ، فاعجبته . فقال لها يا جارية ما ثمانية واربعة واثنتان ، فقالت اما ثمانية فاطباء الكلبة ، واما اربعة فاخلا[illegible]ة ، واما اثنتان فثديا

المرأة . فخطبها الى ابيها ، فزوجه اياها . وشرطت هي عليه ان تسأله عن ثلاث خصال[١] » وتنسج حول ذلك نادرة غريبة هي للتظرف والتملح اكثر منها لشيء اخر . ويقوبنا في اعتقادنا ان هذه النادرة نشأت في ليلة سمر عند عمرو بن هبيرة في الكوفة[٢] . ولسنا بحاجة الى التدليل كم كان يضطر سمار الولاة والخلفاء الى الاختراع في مثل هذه المواقف قصد التلهية وابتاق المسامع[٣] .

وتسوق الرواية له كلاماً عند مقتل ابيه هو قريب من كلام المهلهل عند مقتل اخيه ، وتضعه في موقف هو قريب من موقفه[٤] . قال امرؤ القيس اليوم خمر وغدا امر ، وقال المهلهل اليوم خمر وغدا امر . ولعل القولين مكذوبان على الشاعرين ، ولعل الموقفين اللذين بلغهما فيهما خير المقتل متكلفان تكلفا ، لشدة ما يشفان عن التفنن القصصي ، وبنان عن ميل القصاص الى الاغراب والادهاش .

---

(١) الشنقيطي ، ص ١١

(٢) الاغاني ، جزء ٨ ص ٧٤

(٣) ومن قبيل التظرف والتملح ايضاً ، الرواية التي ينقلها الشنقيطي عن ارسال ابيه له في الابل ليرعاها ، ثم ارساله له في الخيل ، ثم ارساله له في الضأن عساه يرتدع عن لهوه وبطالته . راجعها وتأمل الاسجاع التي يتلفظ بها امرؤ القيس ، فانها اوضح دليل على صبغتها القصصية ـ الشنقيطي ص ٥ ـ ٦ . وما ارجع من كلمة ابي الطيب اللغوي في شيوع القصص ، واختلاط العلم عن طريقها حيث يقول ما فحواه ، ان اهل الكوفة غلبوا على بغداد لما انتقل العلم اليها ، وخدموا الملوك فقدموهم ، فأرغب الناس في الروايات الشاذة ، وتفاخروا بالنوادر ، وتياهوا بالترخيصات ، وتركوا الاصول ، واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم ـ المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٥٦

(٤) خزانة الادب جزء ، ٢٥

وتسوق الرواية ان وفداً من بني اسد زاروه وهو يستعد لاخذ الثار فاظهروا الذلة والمسكنة ، واكثروا من طلب العذر ، ووصفوه ، ووصفوا اباه بما لم يكن لاحد من العرب ، كل ذلك استعطافاً له كي يرتد عن قتالهم ، او يمهلهم قليلا . وانك لو اردت ان تتلمس موقفاً ينضح باثر المنافسة والمفاخرة القبلية نضحاً ، وتفوح منه رائحة الاختلاق والتوليد فوحاً لم تظفر . وحسبك منه هذا المقدار مصداقاً لما نقول : « انك في المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر وما تحدثه ايامه ، وتتنقل به احواله ، بحيث لا تحتاج الى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف اعراقك ، وكرم اصلك في العرب ، محتمل يحتمل ما حمل عليه من اقامة العثرة ، ورجوع عن هفوة . ولا تتجاوز الهمم الى غاية ، الا رجعت اليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ، في الذي كان من الخطب الجليل الذي عمت رزيته نزارا واليمن ، ولم تخصص كندة بذلك دوننا للشرف البارع . كان لحجر التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، واخاء الحمد وطيب الشيم . ولو يفدى هالك بالانفس الباقية بعده ، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ، ولفديناه منه[1] » . اليس لهذه الاسطر من نفسها لسان ينادي عليها بان كندة اصطنعتها لتدليل على مجدها ، وخنوع خلق الله امامها ؟

وتسوق الرواية تجوالا طويلا له في القبائل ، وشعراً في مدح بعض الاسياد وهجو بعضهم ، وفي كل ذلك رائحة عصبية قوية تدل على الشبهة . ولا نحسب قصته مع السموأل الا من هذا القبيل ، فالاصفهاني

(١) شعراء النصرانية جزء ١ ص ١٦

صاحب الاغاني ، لا بتريب ان دارم بن عقال ، وهو من ولد السموأل اصطنع القصيدة القافية في مدح جده ، وحملها على امرىء القيس[1] .

وتسوق الرواية هياماً لابنة القيصر به ، وهياماً له بابنة القيصر ، وتزعم ان الطماح الاسدي شعر بهذه العلاقة غير البريئة ، فتم عليه الى القيصر ، فلم يجد بداً من الخروج ، هارباً او شبه هارب ، حتى اذا بلغ انقرة ، وصلته الحلة المسمومة ، فلبسها ، فكانت فيها منيته . ولا نرى في هذا الا ضرباً من التاليف الروائي ، والعشق فيه كثير ، والمكابد في سبيل العشق اكثر ، فضلا عن ان التاريخ لا يعرف اصلا لمثل هذه الفتاة الاميرة في بلاط يوستنيانوس . فاما الحلة المسمومة فلا يحتاج ما فيها من عمل الخيال ومحاولة الاغراب الى تنبيه . ونرجح ان الشاعر مات بداء ترافقه القروح والبثور ، كالجدري او غيره ، فاتخذ الرواة من ذلك قاعدة لاسطورة الحلة المسمومة .

وتسوق الرواية له تمثالاً اقامه القيصر بانقره . وتردف ان المأمون رآه عندما غزا الصائفة . وعبثاً نفتش في غزوة المأمون للروم عن هذا الخبر . وفي اعتقادنا ان غير المأمون ممن غزا الروم قبله كانوا اولى بمشاهدة هذا التمثال . ولماذا يغفل عنه مسلمة بن عبد الملك مثلا ، وهو قد اوغل في تلك البلاد ، حتى بلغ القسطنطينية ، وحاصرها في خلافة اخيه سليمان .

وصفوة القول ، ان العلم يقضي علينا ان لا نستسلم بثقتنا الى هذه الحكايات ، وقد تبحرناها ، واظهرنا قلقها واختلالها . ولو سئلنا ان نكتب سيرة لامرىء القيس لم نزد على ما نظن القارىء قد استخلصه

(١) الاغاني ، جزء ٨ ص ٧٢

لنفسه ، من ان الشاعر امير كندي فتح عينيه ، فرأى عليه في ء ملك كبير ، ومال وفير ، وجميع مباهج الحياة قريبة من متناوله ، فمد اليها يداً متهالكة ، وفمّاً جائعاً ، واستمتع بها دهراً . غير انه لم يلبث طويلا حتى رأى في ء ذلك الملك يتقلص ، وموارد المال تنضب ، وامبرته تتضعضع ، من جراء انقلاب سياسي ذكرناه ، فجد لاسترجاع مافات ، واستنجد من آنس فيهم النجدة ، ولكنه لم يفلح .

٦ — دينه

بقي علينا ان نلقي نظرة الى دينه ، وبذلك نتفرغ لدرس فنون شعره ، والتماس منحوله من صحيحه ، ولتقدير قيمته الفنية . ولا نحلم ان نتوصل الى حقيقة هذا الامر ، فالرواية تكاد تكون ساكتة عنه وشعره لا يكاد يترك اي اثر في النفس من هذا القبيل ، فضلاً عن ان الركون الى هذا الشعر فيه كثير من المخاطرة كما سترى .

هناك تأولات وتظنيات وافرة في هذه الناحية من الشاعر ، وسنعالجها كلها ، فقد لا تفوتنا المرانة الفكرية ، اذا فاتتنا النتيجة الحاسمة . فمن قائل انه لم يكن على اي دين ، ولم يكن ليعير هذه الشؤون التفاتاً ، ومن قائل انه كان وثنياً ، ومن قائل انه كان مزدكياً ومن قائل انه كان نصرانياً [1] .

اما اصحاب القول الاول — اي انه لم يكن على اي دين ، ولم يكن ليعير هذه الشؤون التفاتاً — فلا نظنهم جادين فيما يزعمون ، ولا نحسب دافعهم الى هذا الاعتقاد سوى ما يطالعون من القول المنسوب الى النبي ان هذا الشاعر يجيء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم الى النار ، وما يعرفون من تهمكه في اشتات الشؤون ، وامتلاء حياته

(١) الروائع جزء ٧ ص ل

باللهو والبطالة اولاً ، والحرب والسياسة آخراً . واذا صح ما يزعمون ، فيكون امرؤ القيس فلتة الاجيال ، لان التاريخ لا يعرف سواه بلا دين على الاطلاق .

واما اصحاب القول الثاني — اي انه كان وثنياً — فقد يعتلون بثلاثة او اربعة امور وهي : ما يزعم عنه من استقسامه عند الصنم ذي الخلصة ، وما ذهبنا اليه من ان اسمه اضافة الى صنم ، وما يلصق به من وأده لبناته [1] ، وما يؤثر عنه من استهتاره بالفواحش ، مما لا يجوزه دين موحد متحرج في الاخلاق . وما اوهى هذه الحجج في وجه النقد فاستقسامه عندذي الخلصة ، وكسره للقداح ، وقذفه لوجه الصنم بها ، اقصوصة غير ثابتة ، وهي اقرب ان تكون مصنوعة لتلوين قصة حياته من ان تكون حقيقية ، فضلاً عن ان ثبوتها ، لا يري شديدتعلق منه بالوثنية ، وخشوعاً امام اصنامها . وكذلك وأده لبناته غير ثابت اذ من الرواة من يزعم ان له بنتاً اسمها هند ، وينسب اليه شعراً في تذكرها وتشوقها من القسطنطينية (٢) . ثم ان استهتاره بالفواحش لايدلنا على شيء ، واذا كان لا بد من اتخاذه شاهداً على عدم توحيده فقد يجب ان نقرر ان الموحدين كلهم عباد ونساك . اما حجة اضافة اسمه الى صنم فاضحوكة ، وقد لا يظهر لك العبث فيها الا اذا اخذت طائفة من عشرائك ورحت تستنتج عقائدهم الدينية من اسمائهم .

واما اصحاب القول الثالث — اي انه كان مزدكياً — ففي

---

(١) ينقل ذلك الدكتور طه حسين في الادب الجاهلي ص ٢١٠

(٢) ديوان امرىء القيس ص ٦٢ — ٦٣

طليعتهم الاب انستاس الكرملي [١] . ودليله نشوء المزدكية في زمانه وتسربها الى العرب ، وانتحال جده الحارث لها ، وموافقة فسقه ومجونه ما في تلك البدعة من استرخاء اخلاقي . ولكن من قال ان المزدكية هي كذلك ، ونحن نعلم ان كسرى انوشروان لاحق اتباعها ، ومزقهم كل ممزق ، وعفى على اثارها [٢] ، فقام اعداؤها كهنة المجوس يثنون عليه ويشيدون بعدله من جانب ، ويفحشون عليها ويشنعون على مبادئها من جانب آخر . وكل شيء يدفعنا الى الاعتقاد ان حسن الصيت الذي يرافق انوشروان راجع الى هؤلاء الكهنة ، وان سوء الرائحة التي تنبعث من المزدكية راجعة اليهم ايضاً . فهل بعد هذا ما يجيز للاب الكرملي خلع المزدكية على الشاعر ، وهو لا يعرف حقيقتها بعد ان شوهتها الاهواء تشويهاً معيباً ! وبعد ، فلنفرض ان تلك البدعة على ما هو مزعوم عنها ، فهل فسق الشاعر ومجونه دليل على انه منها ؟ لو كان الامر كذلك لاضطررنا ان « نمزدك » عدداً من الناس وفيراً . ثم ان انتحال جده الحارث لهذه البدعة غير مقرر [٣] ، ولو كان مقرراً لما افادنا شيئاً في ما نلتمسه من دين الشاعر ، لان ما يصح على جده قد لا يصح عليه ، خصوصاً ونحن لا نكاد نتوهم ان الا منتحلي المزدكية عافوها بعد ان نكبها انوشروان اشد النكبة .

واما اصحاب القول الاخير — اي انه كان نصرانياً — فحامل

---

(١) مجلة المشرق سنة ١٩٠٥ عدد ٨ صفحة ٨٨٦

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، طبعة بولاق ، جزء اول ص ١٢٧

(٣) راجع رد الاب شيخو ، المشرق ، سنة ١٩٠٥ عدد ٨ ص ١٠٠١ فما يلي

لوائهم الاب لويس شيخو [١] . ونحن على احترامنا للرجل وخدماته لا نملك ان ينعرنا ارتياب في براءته من العصبية . ومن المؤسف ان يظل للدين يد في اعمال العلم . نقول من المؤسف ان تدفع النعرة بعض المسلمين الى حسبان المسيحيين ادعياء في العربية ، فتدفع النعرة بعض المسيحيين كالاب شيخو ان يسكب ماء العاد على عدد عديد من الاشخاص كما كثر من نجد في كتابه شعراء النصرانية ، ليري ان اللغة انما اعتزت بهذا الدين ، وغنيت بمآثر ابنائه . ومع هذا كله فيحسن بنا اعتبار براهينه التي تكاد تنحصر في سبعة وهي : خلو شعر امريء القيس من اثر الشرك ، واقراره بوحدانية الخالق ، وذكره للشيء الكثير من الامور النصرانية ، ونصرانية امه فاطمة اخت المهلهل النصراني ، وخروجه الى القيصر ، وما كتبه المؤرخان نلوز وبرو كروب عن علاقات القيصر به ، وانتشار النصرانية في قبيلة كندة .

وليس من العسير اكتشاف الوهن في هذه الحجج ، اذ بعضها يكاد يصدق على جميع شعراء الجاهلية ، وبعضها مبني على خطأ اشرنا اليه ، وبعضها يحتمل ضروباً من التأويل ، وبعضها لا يخول البت بامر دون آخر

فاذا كان شعره خالياً من اثر الشرك ، فاي شعر جاهلي آخر ينضح بهذا الاثر ؟ ولعل هذا من اوضح البراهين على ان الشعر الجاهلي بجملته لا يمثل عقائد بيئته وبالتالي هو مشبوه [٢] . ثم من اين لنا ان نحكم هذا

---

(١) مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٥ ، عدد ٨ ، ص ٩٩٨

(٢) في كتاب نكلسون ص ١٣٦ ، ان الرواة المسلمين كثيراً ما كانوا يستبدلون كلمة اللات ، الالهة الجاهلية ، بكلمة الله ، فاي قيمة علمية لورود ذكر الله في شعر امريء القيس بعد هذا ؟

هذا الحكم من شعره ، والادلة كثيرة على ان ما وصلنا منه مشوه تلاعبت به الايدي الاثيمة ، فضلا عن ان هذا الخلو المزعوم من الشرك لا يدل على انه كان نصرانياً ، بل لا يدل على انه كان مشركا . أفيريدنا الاب ان نقول كان امرؤ القيس نصرانياً لسكوته عن الشرك ، وكان امرؤ القيس مشركا لسكوته عن النصرانية ؟ واذا كان مقراً بوحدانية الخالق فهل اقراره الحجة الدامغة لنصرانيته دون يهوديته مثلا ، وكلتاهما عرفت في الجزيرة منذ زمن قديم . وكم من شاعر جاهلي غيره اكثر من ذكر الله والتوحيد ؟ ثم من يكفل لنا صحة الشعر الذي يستند اليه في تأييد هذا الزعم . وما هو هذا الشيء النصراني الذي اتى على ذكره ؟ وها نحن نطالع شعره فلا نعثر الا على بعض تشابيه بمصابيح الرهبان المزهرة في ليالي الصحراء ! ولا نعبأ بما يذهب اليه من ان امه فاطمة نصرانية ، واخت المهلهل النصراني ، فقد شككنا اشد الشك في هذه القرابة . وهبنا لم نشك فيها ، فقد تحتاج نصرانية فاطمة والمهلهل الى برهان قبل كل شيء ، وقد نحب ان نعرف اذا كانت فاطمة هذه تزوجت نصرانياً ، او اضطرت من تزوجته الى النصرانية قبل رضاها به بعلا . ثم ماذا يفيد خروج الشاعر الى القيصر في نفي او تثبيت المسألة التي نحن بصددها ؟ ومن قال للاب ان المؤرخين نولدكه وبروكوب يتكلمان عن امريء القيس لا عن آخر ؟ وبعد ، فنظنه قرأ شيئاً عن تحمس يوستنيانوس للمسيحية فاستخرج انه لا يعقل ان يعامل غير مسيحي معاملته الحسنة لامريء القيس . ولكنه جهل المصالح السياسية وما قد تقتضيه من ضرب الدين عرض الحائط . فاما احتجاجه ان النصرانية كانت منتشرة في قبيلة كندة فحري بالتوقف عنده ، لانه

خير ما احتج به الاب . واذا صح ملنا بعض الميل الى نصرانية الشاعر على اننا لم نقطع بها . لان قوله كانت منتشرة فقط ، لا يعني سوى ان قسما من القبيلة كان يدين بها ، ومهما كان ذلك القسم كبيراً ، فليس ما يحتم ان يكون امرؤ القيس منه لا من الاقلية [1]

واخيراً لقد طال علينا العهد ونحن نهدم ، ولا بد من نتيجة نحملها في ذهننا . وقد تلمسناها اقصى التلمس ، فلما توصلنا اليها وجدنا انها لا نعلم . وكيف تريدنا ان نعلم ، وليس لدينا الاساس الثابت الذي نعتمد عليه ؟ فشعره الذي كان يكون انفع المصادر واوثقها غير مسلم بصحته ، فضلاً عن ان درسه على علاته لا ينتهي بنا الى نتيجة ما

(١) هذا مع ما ينقل الاب الكرملي من ان هناك فئة تزعم ان كندة فيها اليهودية دون النصرانية ـ مجلة المشرق ، سنة ١٩٠٥ ، عدد ٨ ص ٩٤٩

٧ — صحة شعره

لدينا مقدار من الشعر غير قليل منسوب الى امريء القيس . فما هي مواضيعه ؟ وهل ينتظر ان يطرقها شاعر مثله قضى تلك الحياة التي قصصناها وحققناها ، وكان له تلك الشخصية التي المعنا ببعض اطرافها واي مواضيع اخرى يمكن ان يكون قلب فيها شاعريته ، ولكن لم يبق لنا منها آثار ؟ نرى انه لا بد من علاج هذه المسائل في مستهل الفصل ، اذ هي الاس الذي سنطمئن اليه في سائره .

تتصفح ديوان هذا الشاعر ، فاذا انت امام غزل وسرد للوقائع الحبية ، ولهو ووصف للصيد والفرس والناقة ، وتجوال وتصوير للبروق والامطار ، وغضب وتهديد لقتلة ابيه ، وتعظيم ومدح لبعض اسياد القبائل ممن بشوا له واحسنوا مثواه في محنته وتحقير وهجو لبعضهم ممن اشاحوا عنه الوجه ولم يلينوا له الكنف . اضف الى ذلك نتفا في الفخر ، وبعض مائنات مع الشعراء كعبيد بن الابرص ، وعلقمة الفحل ، والتوأم اليشكري .

وهنا نقف لنستعيد حياته فلا نستطيع الا ان نعتقد بضياع الكثير من هذا الشعر ، لان في اخلاقه وسيرته ما هو غير ممثل ابداً في ديوانه وهل من المعقول ان يدمن الخمر ذلك الادمان الذي عرفناه ثم لا يتغنى

بها في مقطوعة من مقاطعه ، بل لا يكاد يفوه بما يشف عما له بها من كلف شديد ؟ وكذلك هل من المعقول ان يسافر الى القسطنطينية ، وهي الحاضرة العظمى ، ويقيم في بلاطها الفخم الانيق ، ويخالط القيصر وحاشيته ، ويتمتع بما يتمتعون به من اسباب الحضارة [1] ، ولا يترك في آثاره ما يدل على فعله سوى بيت واحد :

ونادمتُ قيصرَ في ملكِه فأوجهني وركبت البريدا [2]

ثم اين هي شخصية الامير الفارس الممتلىء نخوة ، المترع الما مضيضاً لما حل باسرته ، الطالب للثار ، الطامح الى التاج بعد موت ابيه ؟ اين هي تلك الشخصية التي لا نكاد نتصور غيرها ؟ نقلب شعره في هذا العهد من حياته ، فلا نقع الا على صعلوك ، يمدح وباعث مدحه المنفعة المادية ، ويهجو وباعث هجوه المنفعة المادية ، ابداً يلتمس حماية غيره في كثير من التزلف والتملق .

وحبذا لو اقتصر الامر على هذا الضياع الكثير المؤسف ، ولم تعمل العناصر الاثيمة على افساد ما بقي لنا ، بحيث صرنا لا نامن الركون اليه . فمن تلك العناصر ترامي الشقة بيننا وبينه ، وسقوط شعره الينا عن طريق الحفظ والرواية . وحسبك للدلالة على كثرة وقوع المسخ والتحوير عن هذه الطريق ، ما قاله ذو الرمة من انه يكتب شعره ، فالكتابة احب اليه من الحفظ ، وما علق الجاحظ على هذا القول من ان الاعرابي ينسى الكلمة قد سهر الشاعر في طلبها ليلة فيضع في موضعها

---

(١) راجع في الادب الجاهلي ص ٢١٦

(٢) ديوان امريء القيس ص ٤٣

كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس [١] . ولا يزال يجاذب خاطرنا ان كثيراً من قصائد امريء القيس ذات الروي الواحد اختلطت على الرواة، فلفقوا بعضها الى بعض واتونا بهذا الشعر الذي ينكر فيه البيت الاخر لما هو عليه من سوء تأليف وتقطيع نظام [٢] . والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى . فاقرأ ما ينسب اليه في قناصين ثعلبين لقيهم في طريقه الي السموأل وكانوا من جيران صاحب الابلق فصحبوه اليه :

رب رامٍ من بني ثعلٍ ... متلجٍ كفّيه من قُتَرِه

عارضٍ زوراءَ من نشمٍ ... غيرَ باناةٍ على وترِه

قد اتته الوحشُ واردةً ... فتنحى النزعَ في يسَرِه

فرماها في فرائصها ... بإزاء الحوضِ او عقُرِه

برشاشٍ من كنانتِه ... كتلظي الجمرِ في شرَرِه

راشه من ريشِ ناهضةٍ ... ثم أمهاهُ على حجرِه

فهو لا تنمي رسيتَه ... ما له لا عُدَّ من نفَرِه

مُطْعَمٌ للصيدِ ليسَ له ... غيرُها كَسْبٌ على كِبَرِه

وخليلٍ قد افارقُه ... ثم لا ابكي على أثرِه

وابنِ عمٍّ قد تركتُ له ... صفوَ ماءِ الحوضِ عن كدرِه

---

(١) الحيوان للجاحظ ، طبعة محمد ساسي سنة ١٩٠٧ جزء ١ ص ١

(٢) راجع في الادب الجاهلي ص ٢١٩ ـ ٢٢٠

(٣) ديوان امريء القيس ص ٦٠ ـ ٦١

ثم بين لي علاقة البيتين الاخيرين بما قبلهما . وارني اي مدخل لهما في سياق وصف هذا الرامي من بني ثعل . وهل حرج علينا اذا حسبناهما من قصيدة اخرى الحقا بهذه القصيدة الحاقاً وليسا منها في شيء ، هذا ان كان هناك نصيب من الصحة لجميع الشعر . وكذلك اقرأ ما ينسب اليه حين لبس الحلة المسمومة التي اهداها اليه قيصر فاسرع فيه السم وشعر بدنو الاجل :

تأوَّبني دائي القديمُ فغلَّسا احاذرُ ان يرتدَّ دائي فأُنكسا
ألَمَّا على الربعِ القديمِ بعسعسا كأَني انادي او اكلِّمُ اخرسا
فلو أن اهلَ الدارِ فيها كمهدنا
وجدتُ مقيلاً عندهم ومعرَّسا
فلا تنكروني إنني انا جارُكم
لياليَ حلَّ الحيُّ غولاً فألعسا
فاما تريني لا أغمِّضُ ساعةً من الليلِ الا ان اكبَّ فأنعسا
فيا ربَّ مكروبٍ كررتُ وراءَه
وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفَّسا[1]

ثم فكر لعلك تكتشف صلة للابيات الثلاثة بعد المطلع بسائر الشعر . وحدثني الا يخالجك ظن ان هذا البيت المصرع :

ألَمَّا على الربعِ القديمِ بعسعسا . . .

---

(١) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٣٣

اولى ان يكون مطلع قصيدة اخرى غرضها غير غرض هذه التي نحن بصددها . وكذلك اقرأ هذا القسم من لاميته المشهورة :

الا عم صباحاً ايها الطللُ البالي
وهل يعمن من كانَ في العُصُرِ الخالي
وهل يعمن الا سعيدٌ مخلّدٌ قليلُ الهموم ما يبيتُ باوجال
وهل يعمن من كان احدثُ عهده
ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ احوالِ
ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي الخالِ
الحّ عليها كلُّ اسحمَ هطّالِ

ثم اعتبر البيت الرابع ، وما فيه من تصريع واختلاف عن نفس الابيات الاخرى ، وما هو عليه من تقلقل في موضعه ، اليس من الراجح انه مطلع جديد ؟ ثم التفت الى ما يزعم بعض الرواة عن هذه القصيدة من ان امرأ القيس قالها بعد ان نهاه ابوه عن نظم الشعر [1] ، والى ما يزعم البعض الاخر من انه قالها بعد مصرع ابيه في طريقه الى قيصر [2] ، والى ما اعتقده عبدالقادر البغدادي من ان القصيدتين مستقلتان [3] وصارحني الا تميل ميله ، وترمي الرواة بالتخليط بين تينك القصيدتين ، خصوصاً بعد ان تنظر في معنى هذين البيتين :

---

(١) ابن قتيبة ص ١٧
(٢) خزانة الادب جزء ١ ص ٢٢٧
(٣) » » » »

كأني لم اركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروي ولم اقل لخيلي كري كرة بعد إجفال

وهذين البيتين ،

ولو أن ما أسعى لادنى معيشة
كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما اسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

وتنتبه الى ما قد تشير اليه الابيات الاربعة من غصة الذكرى والسعي وراء الملك ، وذلك لا يمكن ان يكون قبل مصرع ابيه . اما زعم فئة اخرى من الرواة ان هذه القصيدة قيلت في ابنة القيصر [1] ، فنضرب عنه صفحاً ، لاننا شككنا في هذا العشق ، وفي كل ما يدور حوله ، او قل تقيناه اذ صرحنا ان التاريخ لا يعرف اصلاً لهذه الاميرة ابنة يوستنيانوس ، فضلاً عن ان في القصيدة اسماء اماكن ونساء هي عربية محض « كاذرعات » و « يثرب » « و سلمى » و « بسباسة » .

ومن تلك العناصر الاثيمة التي عملت على افساد شعره ، حرص اصحاب النحو والبيان والبديع وتفسير القرآن واحوال العرب وغير ذلك من العلوم التي راجت سوقها في العصور العباسية ، ان يكون لهم من الشعر الجاهلي ما يؤيدهم في مختلف دعاويهم . وكيف تريد ان لا يسوء ظننا في هذه الشواهد التي شحن بها اللغويون كتبهم ، بعد ان تعرف ان سيبويه في كتابه امتنع من تسمية الشعراء ، اصحاب شواهده

(١) ينقل ذلك البستاني ، ادباء العرب ص ٦٠-٦١

لانه كره ان يعين الشاعر ، وبعض الشعر يروى لشاعرين ، وبعضه منحول لا يعرف قائله ، وآثر الاعتماد على شيوخه ، ونسب الشعر اليهم ، فهو يقول انشدنا الخليلي ، او يونس ، او غيرهما [1] . واذا كان لا بد من التمثيل ، فاليك هذا المسمط المنسوب اليه :

تَوهمتُ من هندٍ معالم اطلالِ
عفاهنَّ طولُ الدهر في الزمن الخالي
مرابعُ من هندٍ خلت ومصائفُ
يصيحُ بمغناها صدىً وعوازفُ
وغيّرَها هوجُ الرياحُ العواصفُ
وكلُّ مسفٍّ ثم آخر رادفُ
باسحم من نوءِ السماكين هطّالِ

وكأن القدماء فطنوا الى ان الابيات مصنوعة للاستشهاد ليس الا واقروا انها منحولة [2] ولكم احب ان تصفح باب « التقفية والتصريع » من عمدة ابن رشيق ، لانك لا تلبث ان تشعر بما قدمنا لك من حرص العلماء على تعزيز اقوالهم باقوال الجاهليين عامة وامريء القيس خاصة ولقيس على ابن رشيق وعمدته عشرات المؤلفين والمؤلفات . واليك هذا البيت في المدح :

---

(١) خزانة الادب جزء ١ ص ٢٥٢

(٢) العمدة لابن رشيق جزء ١ صفحة ١١٨

رشيق

افادَ فجادَ وسادَ فرادَ وقادَ فذادَ وعادَ فافضل [1]

فمن يكاد يشك ان ما فيه من الهندسة اللفظية ليس من سهولة طبع الجاهلية ، بل من تكلف علماء البديع .

ولك ان تسوق هذا المساق بعض شعره في الفرس ايضاً وتتخذ حجتك من قصيدته وقصيدة علقمة الفحل اللتين يزعم الرواة انهما تحاكما فيهما الى ام جندب [2] فكلاهما اشبه ان تكون مكذوبة على الشاعرين . واقرب دليل توافقهما في المباني توافقاً لا يمكن حمله على توارد الخواطر ، ووقع الحافر على الحافر كما يقولون . جاء في قصيدة امريء القيس :

فانكَ لم تقطع لبانةَ طالبٍ

بمثلِ غدوٍ اورواحٍ موؤبِ

وجاء في قصيدة علقمة :

فانك لم تقطع لبانة طالبٍ بمثل بكور او رواح مؤوبِ

وجاء في قصيدة امريء القيس :

وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها وماءُ الندى يجري على كلِ مذنب

بمنجردٍ قيدِ الاوابدِ لاحه طرادُ الهوادي كلَّ شأوٍ مغرّب

وجاء في قصيدة علقمة :

وقد اغتدي والطير في وكناتها وماء الندى يجري على كل مذنب

---

(١) ديوان امريء القيس صفحة ١٣٦

(٢) تجد نص القصيدتين في ديوان امريء القيس صفحة ١٣ ذابلي

بمنجرد قيد الاوابد لاحه طراد الهوادي كل شأو مغرب

وجاء في قصيدة امريء القيس :

وعينٍ كمرآةِ الصناعِ يديرُها بمحجرِها من النصيفِ المقلّبِ

وجاء في قصيدة علقمة :

بعين كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصيف المنقّبِ

وجاء في قصيدة امريء القيس :

كان عيونَ الوحشِ حولَ خبائنا

وارحلنا الجزعُ الذي لم يثقّبِ

وجاء في قصيدة علقمة :

كان عيون الوحش حول خبائنا وارحلنا الجزع الذي لم يثقب

هذا هو اتفاقهما من ناحية المباني . ومثله او اشد اتفاقهما من ناحية المعاني . وتستطيع ان تقابلها معنى معنى فتفضي اخيراً الى ان الشاعرين لم يستقلا الا بهذا البيت :

وللساقِ الهوبُ وللسوطِ درّةٌ وللزجرِ منه وقعُ اهوجَ منعبِ

وهذا البيت :

فأقبلَ يهوي ثانياً من عنانهِ يمرّ كمرّ الرائحِ المتحلّبِ

وتؤمن انها ، ان كانا تنافسا حقاً ، لم يقولا الا هذين البيتين ، فبنت ام جندب حكمها عليهما . ولا نخالف الذاهبين الى ان في القصيدة كثيراً من اسلوب امريء القيس ومسالكه في التعبير [1] فزعمهم

(١) ادباء العرب للبستاني ص ٣٨

يطابق الواقع ، على ان ذلك مما يدعونا الى الشك اكثر مما يدعونا الى اليقين . فان هذا التكرار الدقيق في اللفظ والمعنى سمة من سمات الاصطناع ، لانه لا يعقل ان يكون الشاعر محدود الشاعرية عقيمها لا يتعدى محوراً رسمه لنفسه في قصيدة من قصائده ثم راح يدور حوله ويدور في غير كلال ولا ملال

وعنصر العصبية القبلية الم تكن له يده في هذا الافساد الشائن ؟ اجل كانت له يده القوية ، وقد عرفنا شيئاً من ذلك في درس حياته واذا كنت ممن لا يؤمنون حتى تضع اصبعك ، فدونك ما يزعم بنو كلب من انهم قتلوا الحارث بن عمرو ، جد امريء القيس ، حين استخفى فيهم ، وما يزعم علماء كندة من انه مات لاكل كبد تيس سخن [1] . ودونك ما يزعم بعض الرواة من ان قباذ هو الذي نصب الحارث المذكور على عرش الحيرة لانه مالأه على المزدكية ، وما يزعم اهل اليمن من انه هو الذي فتحها عنوة [2] . فهل بقي عندك ريب باصطدام العصبية حول جد امريء القيس ؟ واذا اصطدمت حول جده ، فليس ما يمنعنا من الاعتقاد انها اصطدمت حوله وشوهت شيئاً من حقيقته بل هي قد اصطدمت حوله وحول كثيرين غيره في مسألة من هو اول مقصد للقصيد . فادعت اليمانية لامريء ، وبنو اسد لعبيد بن الابرص ، وتغلب للمهلهل ، وبكر لعمرو بن قميئة المرقش الاكبر [3]

---

(١) الاغاني جزء ٨ ص ٦٤

(٢) » » » ٦٥

(٣) هكذا في الاصل

واياد لابي دؤاد [1]، فما يضمن، والحالة هذه، سلامة شاعرنا من اعظم الاذى ؟ ولقد بلغ حد هذه العصبية ان تدعي بنو اقيش بعض شعر امريء القيس لعمرو بن قميئة [2]. ولا تتردد ساعة في القول ان ما اضطر اليه الشاعر من التنقل في البادية بعد موت ابيه اوسع المجال لاصحاب الاهواء ان ينحلوه الشعر مدحاً وهجواً، بل ان يفتعلوا له العلاقات ببعض القبائل والاسياد افتعالاً [3]. ولا نرانا مشتطين اذا امتنعنا من التسليم بشعره القبلي امتناعاً كلياً. وقليل امثال تكفي لتبريرنا. فدونك هذا البيت :

فابلغْ معـدّاً والعبـادَ رطيئاً
وكندةَ اني شاكرٌ لبني ثُعَلْ ؟[4]

الا تتنشق منه العصبية تنشقاً ؟ الا تلمس فيه متهوساً من بني ثعل مصطنعاً له، كاذباً به على امريء القيس، مفاخراً معدا وطيا وكندة والعباد اجمعين ؟ ودونك هذا البيت في بني تيم :

اقرّ حشا امرئ القيس بنِ حجرٍ
بنو تيمٍ مصابيحُ الظلامِ ![5]

فان « مصابيح الظلام » اللقب الذي عرف به بنو تيم فيما بعد،

---

(١) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٩٦
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٥٩
(٣) راجع في الادب الجاهلي ص ٢١٤
(٤) ديوان امريء القيس ص ١٢٢
(٥) ديوان امريء القيس ص ١٣٩ طالع الحاشية ايضاً

ليس الا من قبيل اللقب «عبيد العصا» الذي اسلفناه ان بني اسد عرفوا به بعد ضرب حجر لسراتهم وقد امتنعوا من اداء الاتاوة . وما اشفها عن العصبية . ودونك هذين البيتين في سعد بن ضباب الايادي :

وتعرفُ فيه من أبيــه شمائلاً
ومن خالِه ومن يزيدَ ومن حجرْ
سماحةَ ذا ، وبرَّ ذا ، ووفاءَ ذا
ونائلَ ذا ، اذا صحا واذا سَكِرْ؟[1]

ولا نحتاج الى التعليق عليها ، لان في اسفافها المضحك ما يغنينا . ولو شئنا ان نأتيك بعشرات الاقوال من هذا النمط لفعلنا ولكنا نخشى املالك ، ونعتقد انك لن ترتاح فيما بعد الى ما يحمل على امريء القيس من هذا المدح والهجو القبلي .

وعلى ذكر الاسفاف المضحك في البيتين السابقين ، يحسن بنا الالتفات الى ان شيئاً غير قليل من شعر صاحبنا غث ، فاضح الغثاثة ، لا يتمشى مع ما اثر عن الجاهلية من متانة السبك ، بل لا يتمشى مع ما عرف عنه من قوة التركيب . ولذلك لا نملك ان نشك فيه الشك كله . وآية ما ندعيه هذا الرجز الذي ينسب اليه عندما بلغه موت ابيه :

تطاول الليلُ علينــا دمُونْ دمون انّا معشرٌ يمــانونْ
وإننا لأهلنا محبونْ

وهذا الرجز الآخر الذي ينسب اليه عندما احسّ المنية :

وخطبةٍ محبرّة وطعنةٍ مسحنفرة
وجفنةٍ مثعنجره تبقى غداً بانقره

وعنصر التأليف القصصي لم تكن له يده في شعر امرىء القيس كما كانت له يده في قصة حياته ؟ بلى ! ولا بأس عليك اذا عددت من بابه هذه الماتنات بينه وبين التوأم اليشكري وعبيد بن الابرص[1] فهي متكلفة ظاهرة التكلف تلفحك من معانيها والفاظها نشوفة ادمغة اللغويين وشغفهم بالمعمى العويص .

ومغمزٌ بل مطعن آخر في شعر امرىء القيس ، ولعله اوسع ما ذكرنا من المغامز والمطاعن ، يشمل جميع شعره ، وهو قلة امانة الرجل الذي نقله ، وفساد احساسه بشرف الصدق في العلم . حماد ! ومن لم يتأذّ منه ومن القدر الذي لم يتح للمعلقات ناقلاً غيره . ولا يبدر الى ذهنك انه نقل المعلقة من شعر امرىء القيس فقط . انه نقل جميع شعره ، الا قليلاً نقله ابو عمرو بن العلاء[2] ، مما يزيد في مصيبتنا ومصيبة امرىء القيس . ثم من هو الذي جمع هذا الشعر ؟ عالم اسمه ابو سعيد السكري[3] . ومهما جارينا المترجمين له على فضيلته وورعه ، فلا نستطيع انكار الحقيقة الصلعاء انه عاش في القرن الثالث للهجرة ، وانه يبعد عن امرىء القيس اربعة قرون او اكثر وان التسليم لرجل يبعد عما يجمعه هذا البعد لامر غير يسير مع شدة التقصير العلمي الذي لم يخل

---

(١) تجد نصها في ديوان امرىء القيس ص ٦٢ — ٦٣ و ص ٦٨ — ٧٠

(٢) المزهر جزء ٢ ص ٢٥٣

(٣) نزهة الالباء ، الطبعة الحجرية ، ص ٢٧٤

منه السواد الاعظم من علمائنا

وفي الختام ، ليس من النزاهة العلمية ان نخرج بك من هذا الفصل وانت مطمئن الى اننا اول من استحدث هذه الشكوك القاسية . فقد مهد لنا طريقها القدماء حين ترددوا في قبول قسم من المعلقة ، ورأوه منافياً لشخصية الشاعر ، وهو هذه الابيات في وصف الوادي والذئب :

وقربةِ اقوامٍ جعلتُ عِصامَها
على كاهلي مني ذلولٍ مرحّلِ

ووادٍ كجوفِ العيرِ قفرٍ قطعتُه
به الذئبُ يعوي كالخليعِ المعيّلِ

فقلت له لما عوى ان شأننا
قليلُ الغنى ان كنتَ لما تموّل

كلانا اذا ما نالَ شيئاً افاتَه
ومن يحترثْ حرثي وحرثك يهزل

ومعناها : كم قربة اقوام حملتها على كاهلي الموطأ للحمل ، وكم واد مجدب مقفر قطعته ، فسمعت الذئب يعوي فيه ، كانه طريد لفظته عشيرته لكثرة رذائله ، وهو فوق هذا معدم كثير العيال يلحون عليه بالنفقة وليس لديه ما يكفهم عنه ، فقلت له لما عوى كانه يشكو دهره ، ان شأننا شأن فقر لاثراء ، كلانا مسراف متلاف لا يكاد يحوز الشيء حتى يبدده ، ثم هو يكد حتى يهزل الهزال الشديد . وليس عليك ان تجهد نفسك حتى تعرف ان هذا بعيد عن روح امرىء

القيس الامير المترف الذي كانت تتبعه حاشيته من مكان الى آخر وفيها القيان والطهاة والسقاة ، بل ليس عليك ان تجهد نفسك حتى تعرف انه بكلام الصعاليك اشبه ، وبهم اشكل ، وان القدماء غير مخطئين حين اضافوه الى تابط شرا[1] .

ثم انهم شكوا ايضاً في هذه الابيات التي يزعم بعض الرواة انها اول شعر قاله :

اذود القوافي عني ذيادا ذيادَ غلامٍ جريءٍ جوادا
فلما كثرنَ وعنينه تخيرَ منهنَّ شتى جيادا
فاعزلُ مرجانها جانباً وآخذُ ياقوتها المستجادا

فنسبوها الى امرىء القيس بن بكر ، ونسبوها الى امرىء القيس بن عابس وكلاهما كندي[2] .

وشكوا في قصيدته في تهديد بني اسد

تطاولَ ليلك بالإثمد ونامَ الخليُّ ولم ترقد
وباتَ وباتت له ليلةً كليلة ذي العائر الارمد[3]

فنسبوها الى امرىء بن عابس[4] . ولعلّ من الخير ان نلفتك الى ان هذا الاختلاف وقع لتشابه الاسماء والتباسها ، وانه ليس من البعيد ان تكون كثرة الشعراء المعروفين بامرىء القيس ، وشهرة صاحبنا منهم ،

(١) خزانة الادب جزء ١ ص ٩٣
(٢) ينفي ذلك البستاني في ادباء العرب ص ٤٥
(٣) تجد نص القصيدة في الديوان ص ٣٩ - ٤١
(٤) ادباء العرب ص ٤٤

لاشتهم فيه ودست شعرهم في شعره

ثم انهم شكوا في قصيدته :

أحار بن عمرو كأني خمر ويعدو على المرء ما يأتمر

فنسبوها الى ربيعة بن جعشم من اولاد النمر بن قاسط[1].

ثم ان صاحب الاغاني ، خلاف شكة في « القافية » في مدح السموأل ، اشار الى بيتين دخيلين على المعلقة وهما :

فلا تحرجي من سلكنا مهجة عاشق

بلى فاقتلي ثم قتلي ثم فاقتلي

فلا تدعي ان تفعلي ما اردته

بنا ما اراك الله من ذاك فافعلي[2]

وكذلك الجاحظ لا يفوته حين يستشهد بقصيدته :

كانها حين فاض الماء واحتملت

فتخاء لاح لها في القفرة الذيب

ان يصرح « قال امرؤ القيس ان كان قاله[3] »

وقد استلم هذا الشك الدكتور طه حسين ، فتمادى فيه ، واحدث ثورة في البحث الادبي نحن من المكبرين لها المنتفعين بها وقد ماشيناه في جميع آرائه حتى هذا الحد ، غير انا لن نجد بداً من الافتراق عنه في

---

(١) خزانة الادب جز ١ ص ٣٥٦

(٢) الاغاني جزء ٨ ص ٦١ـ٦٢

(٣) الحيوان للجاحظ جز ٦ ص ١١١

الفصل الذي يلي .

٨ — المعقول من شعره — تقديره الفني

بعد ان احطنا بالشكوك القاسية هذا المقدار من شعر امريء القيس فما الذي نقبل ؟ الا نقبل شيئاً على الاطلاق ، ونختم هذا الدرس المجهد الطويل بان صاحبنا لم يبق له بين ايدينا قليل او كثير ؟ لا ان هذا لغلو مفرط ، اذ لا يزال من آثاره شيء يمثله ولو بعض التمثيل . ونحن نستطيع الركون اليه لانه ليس فيه ما يوقفنا موقف الاشتباه . نعني انه ليس فيه رائحة للعصبية القبلية ، ولا لتنطس اللغويين وعلماء الخيل والنوق ، فضلاً عن انه ينطبق احسن الانطباق على شخصية صاحبه ، كالشعر الذي نحلله في هذا الفصل ، ونعتقد ان لا غبار عليه ، الا ان يكون امتداد الزمان ، واهمال الرواية ، وتقصير الحافظة ، بدلت من الفاظه ، وخلطت بين اجزائه ، وتلك امور ليس في امكاننا ولا امكان احد ان يشير اليها او يلمسها لمس اليد .

اردنا بهذا الشعر غزل امريء القيس ، ومقاطع في وصف الفرس والصيد ، واشتاتاً من الابيات ، موزعة على غير نظام في تفاريق القصائد المنسوبة اليه .

اما الغزل فقد يأبى علينا المتحرجون بحثه ، خشية ما قد يجره من الفتنة والاغواء ، ولكنا سنمضي في عملنا ، لانا نقاد لا مبشرون

فضلاً عن انا لا نرى قيمة لتلك الاخلاق التي لا تستقيم وتصلح الا بضرب ستار صفيق عليها ، اذا انزاح عن بيت شعر اعوجت وفسدت .

تعلم انه اجتمع لصاحبنا كل ميسرات التبذل والتعهر : شرف الامرة ، وفرة المال ، نضارة الشباب . فاطلق نفسه على هواها ، لم يضبطها او يملك من عنانها . لقد احسّ جمالات المرأة اشبع احساس ، فحام حول مغاويها ومفاتنها في خير ما تناهى الينا من مقاطعه ، ولكنه لم يحسها الاحساس الروحاني ، لم يحسبها حلاوة تقتاتها الروح ، لم يتخذها مقدساً للخشوع والابتهال ، لم يعتلقها لشيء من المناكهة واللهو البريء وانما حسبها رعشة تنتاب الجسد ، واتخذها حانة للسكر والعربدة ، واعتلقها لنشوة بهيمية اثيمة . فجاء غزله مترشحاً بالشهوة ، كظيظاً بالتصاوير الحسية يبلغ بعضها اقصى درجات الفحش ، مزحوماً بالالفاظ المادية ضخمة حشو الفم والاذن [1] ، اليك ما قال من معلقته :

مهفهفةٌ بيضاءُ غيرُ مفاضةٍ ترائبها مصقولةٌ كالسجنجلِ

كبكرِ المقاناةِ البياضَ بصفرةٍ

غذاها نميرُ الماءِ غيرُ المحلَّلِ

تصدُّ وتبدي عن اسيلٍ وتتقي

بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مُطفِلِ

---

(١) لم يخطىء ابن عبد ربه حين عد امرأ القيس من اصحاب النفس البهيمية ولم يخطىء الرواة تمثيل روحه حين اضافوا اليه هذا القول في السرور «بيضاء وصبوبة ، بالطيب مشوبة ، باللحم مكبوبة» [العقد الفريد جزء ٤ ص ٢٦٧]

وجيدٍ كجيدِ الرئمِ ليس بفاحشٍ
اذا هي نصّتـه ولا بمعطّل

وفرعٍ يزينُ المتنَ اسودَ فاحمٍ
اثيثٍ كقنوِ النخلةِ المتعثكل

غدائره مستشزراتٌ الى العـلى
تضلّ المدارى في مثنى ومرسل

وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مخصّرٍ
وساقٍ كانبوبِ السقيّ المذلّلِ

وتضحي فتيتُ المسكِ فوقَ فراشها
نؤومُ الضحى لم تنتطقْ عن تفضّل

وتعطو برخصٍ غيرِ شثنٍ كانه
اساريعُ ظبيٍ او مساويكُ إسحل

تضيءُ الظلامَ بالعشاء كانهـا
منـارةُ ممسى راهبٍ متبتّلِ

فهل تراه خارجًا عن الحس والمادة في وصف انهضام بطن معشوقته، وانصقال صدرها، وامتزاج بياضها بالصفرة، ورقة خدها، وامتلاء الحاظيها بالعطف، وحمال عنقها الحا، وليونة [illegible]

خصلها ، ولطافة خصرها ، وانملاس ساقها وبضاضته ، وطيب فراشها ، ونعومة انامليها المحمرة الاطراف وضوء وجهها ؟ هل تراه في كل هذا شافا عن اثر روحانية ؟ لا ! لانه لايستطيع ان يستلذ المرأة الابحواسة الجسدية . واليك ما قال من لاميته :

لطيفةُ طيِّ الكشحِ غيرُ مفاضة
اذا انفتلت مرتجّةً غيرَ متفالِ

اذا ما الضجيعُ ابتزّها من ثيابها
تميلُ عليهِ هونةً غيرَ معطالِ

كدعص النقا يمشي الوليدانِ فوقه
بما احتسبا من لينِ مسٍّ وتسهالِ

اذا ما استحمّت كان فيضُ غديرِها
لدى متينتها كالجمانِ لذي الحالِ

فهنا ايضاً حس ومادة في وصف هيف خصرها ، وارتجاجها ، وطيبها ، وحسن متجردها ، وحليها ، ولين ردفها ككثيب الرمل ، واستحمامها ، وانفصال الماء عن كتفيها كاللؤلؤ المتناثر

وقد اشتق امرؤ القيس اسلوبا في الغزل ، هو قصصي اخباري اكثر ما يأتي فيه على طريقة توصله الى عشيقته ، وتبادل الاحاديث بينهما ، وتلذذه بها في طمأنينة وفراغ بال . جاء في معلقته :

وبيضةِ خدرٍ لا يرامُ خِباؤُها
تمتّعتُ من لهوٍ بها غيرَ معجلِ
تجاوزتُ احراساً اليها ومعشراً
عليّ حراصاً لو يُسِرُّون مَقتلي
اذا ما الثريا في السماءِ تعرّضت
تعرُّضَ اثناءِ الوشاحِ المفصَّل
فجئتُ وقد نضت لنومٍ ثيابها
لدى السترِ الا لِبْسةَ المتفضل
فقالت يمينَ اللهِ مالكَ حيلة
وما إن ارى عنكَ الغوايةَ تنجلي
خرجتُ بها أمشي تجرُّ وراءَنا
على اثرينا ذيلَ مرطٍ مرحّل
فلما اجزنا ساحةَ الحيّ وانتحى
بنا بطنُ خبتٍ ذي حقافٍ عقنقل
هصرت بفودَيْ رأسها فتمايلت
عليّ هضيم الكشحِ ريّا المخلخل

١ فتأمل كيف تمتع بهذه الفتاة المخدرة، بعد ان تجاوز اليها الاحراس

الحراص على قتله ، في ساعة متأخرة من الليل ، والثريا منشورة على صدر السماء كالوشاح المرصع بالجوهر ، فصادفها خالعة كل ثيابها الا ثوبها الذي تنام به ، فدهشت ، وقالت له : كم انت غافل عن عواقب الامور وكم انت غوي لا تنجلي عنك الغواية ! فلم يكن منه الا ان اجتذبها وخرج بها بمشيان ، فتطمس آثار اقدامهما ذيول ملفها الليلي المجرجره وراءهما ، حتى اذا جاوزا ساحة الحي ، وصارا في مأمن ضغط جانبي رأسها بيديه فتمايلت عليه دقيقة الخصر بضة الساق . وجاء في لاميته :

سموت اليها بعد ما نام اهلُها
سموَّ حبابِ الماء حالاً على حالِ

فقالت سباكَ الله انكَ فاضحي
الست ترى السمّار والناس أحوالي

فقلت يمينَ الله ابرحُ قاعداً
ولو قطعوا رأسي لديكِ واوصالي

حلفتُ لها بالله حلفةَ فاجرٍ
لنامتْ فما ان من حديثٍ ولا صال

فاصبحتُ معشوقاً واصبح بعلها
عليهِ قتامٌ كاسفَ اللونِ والبال

وهنا ايضاً فلتة ليلية الى فتاة بعد ان استولى النوم على اهلها ولكن باي تحفظ ، واختلاس خطو كي لا يشعر احد ؟! وهنا ايضاً تأنيب

من الفتاة وخشية للفضيحة . وهنا اصرار من الشاعر على القعود ولو كان في الامر منيته ، حتى يستكمل حظه ممن تشتاقها نفسه .

وكأنا بالدكتور طه حسين يشفق علينا من هذا الكد الذي نتكلفه في تحليل هذا الشعر كما لو كان جداً من الامر . ولا نعلم لماذا يرفضه وهو يرشح بشخصية واحدة قلباً وقالباً . لا نعلم سوى انه وجد مثاراً للشك في فحشه الشديد الذي هو موافق لروح الفرزدق ، وفي اسلوبه القصصي الذي هو خاصة عمر بن ابي ربيعة . فلم يجد ادنى مشقة ان يستخلص ان رواة متأثرين بروح وفن الشاعرين الاموين اصطنعوه . ذلك بعد ان مال ميلا قوياً الى ان الفرزدق هو الذي افتعل حديث دارة جلجل وافتعل الشعر الذي يدور حوله[1] . والحزر والحدس لا يغنيان في هذا الكلام . فقد نرى من واجب الدكتور — او من حقنا ان نوجب عليه ان يقيم لنا الحجة ان حديث دارة جلجل لم يكن معروفاً قبل الفرزدق وقد نرى من واجبه ايضاً ان يقنعنا ان جميع الروايات الادبية وصلت اليه بدون ادنى ضياع ، فهو لا يستطيع ان يجزم ان احداً من الرواة لم يشر الى استفادة ابن ابي ربيعة من الشاعر الجاهلي . بل قد نرى من واجبه ان يرينا ان الرواة كانوا منتبهين الى هذا النوع من النقد حتى يطالبهم بالمقارنة بين اسلوب امرىء القيس وابن ابي ربيعة . اما نحن فنقول لا! وآية ما ندعيه انه كان عهد فيه الرواة وفيه شعر امرىء القيس ، وفيه شعر بن ابي ربيعة . ولم نجد احداً نبه الى هذه الصلة ، وانما كان منتهى همهم ملاحقة الاشابه والاستعدادات والكنايات وما شاكل .

وقد نرى من واجب الدكتور ايضاً ان يقطع لنا البرهان ان السكوت

---

(١) في الادب الجاهلي ص ٢٢١ — ٢٢٢

عن الشيء دليل بات على عدم وجوده ، بل قد نرى من واجبه ان يظهر لنا السبب الذي قد يكون حدا الرواة الى اصطناع هذا الشعر . اهو العصبية القبلية ، وهو انزه ما يكون عنها ، ام اضطرار علماء الخيل والنوق الى الاستشهاد ، وهو ابرأ ما يكون من تقعراتهم ، ام تعمد القصاص للاغراب ، وهو مألوف ليس اقرب منه الى الواقع؟ نقول هذا فضلا عن انا نوقن ان الفرزدق كان بعيداً من اضافة هذا الشعر الجيد الى سواه ، وهو المتهالك على انتحال شعر الناس [1] ، وفضلا عن انا نوقن انه تأثر بامريء القيس تأثراً يلمس باليد ، لشدة ما كان مولعاً برواية اخباره واشعاره [2] ، وفضلا عن انا نوقن ان قرشية بن ابي ربيعة عملت كثيراً على اظهاره وساعدت على ستر عيوبه . ذلك لان قريشاً سادت العرب فاقروا لها بالسيادة الا في الشعر حتى نبغ عمر ، فكان من عصبيتها مايدفعها الى تشجيعه ، والا فما معنى انصراف ابن عباس عن نافع بن الازرق في المسجد ، وانقطاعه عن مناظرة دينية ، ليصغي الى انشاد الرائية ، وما معنى قوله : هل استحدث هذا المغيري شيئاً بعدنا [3] نريد بهذا ان الدكتور مخطيء حين يدعي ان ابن ابي ربيعة انما عاش على القصص الغرامي وحده . لقد عاش على نسبه ايضاً .

ويجدر بنا في هذا السياق ان نتعرف الى النساء اللواتي يتغزل بهن شاعرنا : كلهن مترفات من بنات النعمة ، وقد يكن اميرات من اسرته لا ينهضن باكراً ويشددن الى اوساطهن مآزر الخدمة والعمل ، بل لا

---

(١) ادباء العرب للبستاني ص ٤٧

(٢) العقد الفريد جزء ٤ ص ٣٥٣

(٣) ينقل ذلك البستاني في ادباء العرب ص ٣٠٥-٣٠٦

يبرحن نائمات حتى الضحى ، وفتيت المسك فوق فرشهن :

وتضحي فتيتُ المِسْكِ فوقَ فراشها
نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضّلِ

وكلهن منقلدات للحلى الوهاجة كالجمر :

كأنَّ على لبّاتها جمر مصطلٍ
اصاب غضاً جزلاً وكُفَّ باجذال

وكلهن متعطرات مستعملات للطيب :

لطيفةُ طيّ الكشح غيرُ مفاضةٍ
اذا انفتلت مرتجّةً غيرَ مِثفالِ

وكلهن مستحمات تتزلق عن اجسادهن قطرات الماء كالفضه :

اذا ما استحمت كان فيضُ حميمها
على متنيتها كالجمانِ لذي الحالِ

وكلهن لعوبات ، طلابات للنزه ، يركبن جمالهن ، ويقصدن الغدران للمرح والاغتسال كما في حديث دارة جلجل . وكلهن خالعات ثيابهن اذا اوين الى فرشهن ، مكتفيات بغلالة فضفاضة تتبحبح بها اجسادهن وتموج حرة من عناء البسة النهار :

فجئتُ وقد نَضَتْ لنومٍ ثيابها
لدى السترِ الا لِبْسةَ المتفضّلِ

والان، بعد ان لمسنا هذا العنصر الشهواني الرغيب في الجمال الانثوي عنصر الامارة المتحضرة ، ربيبة القصور ، في ضرب من شعر امريء القيس ، فننتقل الى ضرب آخر نلمس فيه امارته اللاهية اللاعبة ، ولكن مشوبة ببداوة قوية . اردنا بذلك وصفه للفرس والصيد والبرق والمطر ، خصوصاً ما ورد منه في المعلقة . قال في وصف الفرس والصيد

وقد اغتدي والطيرُ في وكناتِها
بمنجردٍ قيدِ الاوابدِ هيكلِ
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً
كجلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من علِ
كميتٍ يزلُّ اللبدُ عن حال متنه
كما زلَّتِ الصفواءُ بالمتنزلِ
على الذبل جيّاشٍ كان اهتزامه
اذا جاشَ فيه حميهُ غليُ مرجل
مسحٍ اذا ما السابحاتُ على الونى
اثرن غباراً بالكديدِ المركّل
يزلُّ الغلامُ الخفّ عن صهواته
ويلوي باثوابِ العنيفِ المثقّل
دريرٍ كخذروفِ الوليدِ أمرَّه
تتابعُ كفّيه بخيطٍ موصل

له ايطلا ظبي وساقا نعامةٍ وارخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفل
ضليعٍ اذا استدبرته سدَّ فرجه
بضافٍ فويقَ الارضِ ليس باعزل
كأنَّ على المتنينِ منه اذا انتهى
مداكَ عروسٍ او صلاحية حنظل
كان دماءَ الهاديات بنحره عصارةُ حناءٍ بشيبٍ مرجّل
فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نعاجه عذارى دوار في ملاءٍ مذيل
فأدبرن كالجزع المفصَّل بينه بجيدٍ معمٍّ في العشيرة مخوَل
فألحقنا بالهادياتِ ودونه جواحرُها في صرّةٍ لم تزيَّل
فعادى عداءً بين ثورٍ ونعجة دراكاً ولم ينضح بماءٍ فيغسل
فظلَّ طهاةُ اللحم من بين منضجٍ
صفيفِ شواءٍ او قديرٍ معجَّل
ورحنا يكادُ الطرفُ يقصرُ دونه
متى ما ترقَّ العينُ فيه تسهَّل
فباتَ عليه سرجُه ولجامُه وباتَ بعيني قائماً غير مُرسل

فهو امير بدوي في هذا الغدو الى الصيد قبل يقظة الطير ، وهو امير بدوي في ركوب هذا الفرس الرقيق الشعر ، المقيد لاوابد الصحراء

بشدة عدوه ، الضخم الهيكل ، المكتنز باللحم حتى ليزل عنه سرجه ، الجياش بالصهيل حتى ليغلي غلى المرجل ، المتدفق في السير وغيره من الخيل وانية مكدودة لا تزيد على شدة اثارة الغبار . هو امير بدوي في جميع وصفه للفرس الذي لم ننثره كله اشفاقاً من التطويل . وهو امير بدوي في وصف هذا السرب الذي عنّ له فاصطاد منه واكل شواء وغير شواء ، وفرسه الحبيب لا يزال الى جنبه مسرجاً ملجماً على اهبة لاستئناف السير . وما اخلق امرأ القيس ان يصبغ شعره او شيئاً من شعره ، باصباغ البادية وهي احدى الاغذية العاملة في شاعريته ، بها نشأ ، ومدى آفاقها سرح ، ولصورها التقط واختزن ، وفي الوان مشاهدها غمس ريشة فنه .

ولنلاحظ انه لا يزال واحداً في طريقته واسلوبه . لا يزال صاحب تلك الاوصاف المادية كما يشهد قوله « قيد الاوابد » . وقوله « كجلمود صخر حطه السيل من عل » ، وقوله « كدروف الوليد » ، وقوله « له ايطلا ظبي وساقا نعامة » اذ كلها مادية تقع في نطاق الحواس الجسدية . وكذلك لا يزال سالكاً مسلك القصص ، يؤدي به مراده الى الافهام ، كما يشهد تفصيله الخبر عن امر الصيد من خروجه في ساعة باكرة ، الى التقائه بالسرب ، الى مطاردته له وفوزه ببعضه ، الى جلوسه واكله ما اصطاد . وقال في وصف البرق ، وهو من المعلقة :

اصاحِ ترى برقاً اريك وميضه كلمعِ اليدينِ في جيٍّ مكللِ
يضيءُ سناه او مصابيحَ راهبٍ أمالَ السليطَ بالذبالِ المفتّلِ

ويحسن بنا الاشارة الى شيئين في هذه الابيات ، اولا تمثيله المادي

المحسوس ، وثانياً تشبيهه بمصابيح الرهبان المزهرة في الليل ، وهي اذ ذاك منتشرة عرض البادية ، لكثرة الرهبان المعتزلين للعالم المتصوفين في خيامهم . ونستدل على هذه الكثرة بعدد من احتك بهم النبي ، وجادلهم وجادلوه ، ونزلت عليه فيهم الايات . وقال في وصف المطر وهو من غير المعلقة :

ديمةٌ هطلاءُ فيها وطفٌ ... طَبَّقَ الارضَ تحرّى وتَدُرّ
وترى الضبَّ خفيقاً ماهراً ... ثانياً برثنه ما ينعفر
وترى الشجراءَ في ريقها ... كرؤوسٍ قطعت ، فيها الخُمُر
ساعةً . ثم انتحاها وابلٌ ... ساقطُ الاكنافِ واهٍ منهمر
راحَ تمريه الصبا ثم انتحى ... فيه شؤبوبُ جنوبٍ منفجر
ثجَّ حتى ضاق عن آذيهِ ... عرضُ خيمٍ ، فخفافٍ ، فبسر
قد غدا يحملني في انفه ... لاحقُ الاطلين محبوكٌ ممرّ[1]

ولا حاجة بنا الى التدليل على البداوة والمادة في هذه الصور ، اذ يغنينا هذا المطر الذي عمّ الارض ، فشوهد الضبّ سابحاً لاوياً برثنه كي لا يعلق به التراب ، وشوهدت الاشجار غائصة مغمورة ، حتى اذا تناقص الطغيان ، ظهرت مغطاة الرؤوس بما غادره عليها من زبده كأنها معتمّة .

فاما اشتات الابيات التي ترجعت عندنا صحتها ، وقلنا انها موزعة على غير نظام في نفاريق القصائد المنسوبة اليه فقليله جداً ، خيرها هذه

(١) ديوان امرئ القيس ص ٦٣ — ٦٤

الابيات في الحرب :

الحربُ اولَ ما تكونُ فتيّةً ... تبدو بزينتها لكلّ جهولِ
حتى اذا حميت وشبّ ضرامها ... عادت عجوزاً غيرَ ذاتِ حليل
شمطاءَ جزّت رأسَها وتنكّرت ... مكروهةً للشمّ والتقبيلِ (١)

وقد عاناها ، وتكشفت له ويلاتها ، فوصفها بما وصفها .

وهذان البيتان في مسيره الى القيصر وطموحه الى الملك:

بكى صاحبي لما رأى الدربَ دونَه
وايقنَ انا لاحقانِ بقيصرا
فقلتُ له لا تبكِ عينك انما
نحاولُ ملكاً او نموتَ فنعذرا (٢)

وهذان البيتان في شكوى الدهر :

اذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه
وقرّت به العينان بُدّلتُ آخرا
كذلك جدّي ما اصاحبُ صاحباً
من الناس الا خانني وتغيرا (٣)

---

(١) شعراء النصرانية جزء ١ ص ٦٢
(٢) ديوان امريء القيس ص٤٨
(٣) » » » ص ٥٠

وهذه الابيات في مرضه :

فاما تريني لا اغمّضُ ساعةً من الليلِ الا ان اكبَّ فانعسا
فيا ربَّ مكروبٍ كررتُ وراءَه
وطاعنتُ عنه الخيلَ حتى تنفّسا
ويا ربَّ يومٍ قد اروح مرجّلاً
حبيباً الى البيضِ الكواعبِ املسا
وما خلتُ تبريحَ الحياةِ كما ارى
تضيقُ ذراعي ان اقومَ فألبسا !(١)

وهذه الابيات في غايته من الحياة :

أصبحتُ ودّعتُ الصبا غيرَ أنني
اراقبُ خلاّتٍ من العيشِ اربعا
فمنهنَّ قولي للندامى ترفّقوا يداجونَ نشّاجاً من الخمرِ مترعا
ومنهنَّ ركضُ الخيلِ ترجمُ بالقنا
يبادرنَ سِرباً آمناً ان يفزّعا
ومنهنَّ نصُّ العيسِ والليلُ شاملٌ
ييممن مجهولاً من الارضِ بلقعا

(١) ديوان امرىء القيس ص ٧١

خوارجُ من بريّةِ نحو قريـةٍ
يجدّدنَ وصلاً او يرجّينَ مطمعا

ومنهنَّ سَوْفُ الخودِ قدلها الندى
تراقبُ منظومَ النمائمُ مرْضَعـا

يعزُّ عليهـا ربـتي ويسوءُها
بكاه فتثني الجيدَ ان يتضوّعا.[1]

وهنا نهمّ ان نختم الفصل ، ونتقـدم الى الكلام عن منزلة الشاعر ، لو لا ان الدكتور طه حسين لا يزال له علينا حق . فهو يريد ان نجيبه كيف نظم امرؤ القيس شعره في لغة عدنان ، بل لغة قريش دون غيرها مع انه يمني النسب[2] . فنقول له انه كان هازلا حين سأل هذا السؤال وانما قصد الى معاياة الباحثين وتعجيزهم ، ولو كان جاداً لوجب عليه ان يرفض هذا الشعر بقضه وقضيضه ، ولكنه قد قبل منه جملا مقتضبة في وصف الفرس والصيد شم منها ريح امريء القيس[3] . فنحن نسأله بدورنا هل قيل ذلك في لغة عرب الشمال ام في لغة عرب الجنوب ،

---

(١) ديوان امريء القيس ص ٨٤ . تذكر هذه الابيات بابيات طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم احفل متى قام عودي
فمنهن سبق العـاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب ببهكنه تحت الطراف المعمد

(٢) في الادب الجاهلي ص ٢١٧

(٣) في الادب الجاهلي ص ٢٢٢ — ٢٢٣

ونسمح لانفسنا ان نصارحه بتناقض واضح صدر عنه ولم يشعر . على انا لو اغتفرنا هذا التناقض للدكتور ولم نتخذه حجة عليه وعدنا نجيبه على سؤاله ، لدفعناه بايسر مما يتصور . فهو لا شك يعلم ان امرأ القيس شمالي النشأة[1] ، وان اسرته رحلت الى الشمال قبل مولده بكثير ، لان بينه وبين آكل المرار ، القائم بتلك الرحلة ثلاثة ، هم ابوه وجده وابو جده فلا مجال اذن للدهشة من استعماله اللغة العدنانية . وهو لا شك يعلم ان اللغة القريشية لم تكن تختلف عن غيرها من لغات القبائل الا بمقدار اختلاف اللهجات ، فلا مجال اذن للدهشة من استعماله اللغة القريشية ، فضلا عن انه لا يستطيع ان يقرر ان هذه اللغة هي قريشية صرف ، بل لا يستطيع ان يقرر ان اللغة القريشية لم تختلط بغيرها ، والعقل يأبى ذلك بل يرفضه رفضاً . ثم انا نخاله يعلم ان توحيد اللغتين العدنانية والقحطانية كان قد بلغ شوطاً بعيداً في عهد امرئ القيس ، لانه لا يكاد يبعد عن عهد الاسلام الا قرناً واحداً ، ونحن نعلم ان النبي راسل مختلف القبائل وفهموا رسائله بغير ترجمان ، ونحن نعلم ان وفوداً كثيرة من هذه القبائل اتت النبي وبايعته ، ونحن نعلم ان القرآن فهمه جميع العرب ، فكيف تم ذلك لو لم تكن اللغة موحدة . وهذا التوحيد لا يستغرق القرن الواحد فقط بل القرون العديدة ، كما لا يخفى على الدكتور البصير ببطء امثال هذه التطورات التاريخية . واذا كان قد استغرق اقل من قرن ، فاختلاف اللغتين الذي يستغله الدكتور هذا الاستغلال الفاحش ، يجب ان يكون طفيفاً لا يعبأ به .

---

(١) يقول ابن رشيق هو يماني النسب نزاري الدار والمنشأ ـ العمدة جزء ١ ص ٥٩

٩ — منزلته

وليس احق من ان تكون خاتمة درسنا الكلام على منزلة امرىء القيس ، فنتفهم رأي الاقدمين فيه ، ونتفهم اين وضعوه من مصاف الشعراء ، ثم نعود الى انفسنا نستخلص له منزلة من مقاييسنا للنقد وفهمنا للشعر .

اين تلتفت ولا تجد امرأ القيس ؟ افي كتب المعاني والبيان ؟ ام في كتب صناعة الشعر ؟ ندعوك اذاً الى مراجعة « الصناعتين » للعسكري ، ومراجعة « العمدة » لابن رشيق ، ومراجعة « الوساطة » للجرجاني . فسترى بعضهم يتمثل بشعره على براعة التشبيه في هذا القول المنسوب اليه :

كأن قلوبَ الطيرِ رطباً ويابساً
لدى وكرِها العنَّابُ والحشَفُ البالي

وهذا القول :

كان عيونَ الوحشِ حول خبائنا
وارحلنا الجزعُ الذي لم يثقَّبِ

وهذا القول:

جمعتُ رديناً كانَّ شباتَه سنى لهبٍ لم يتّصلْ بدُخانِ

وهذا القول:

وليلٍ كموجِ البحرِ ارخى سدوله
عليَّ بانواعِ الهمومِ ليبتلي

وهذا القول:

له ايطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ
وارخاءُ سرحانٍ وتقريبُ تتفل[1]

وسترى بعضهم يتمثل به على اشياء من علم العروض ككثرة التصريع في هذا القول:

تروح من الحيّ ام تبتكرْ وماذا عليك بان تنتظرْ
امرخٌ خيامُهم ام عُشُرْ ام القلبُ في اثرِهم منحدرْ
وشاقك بين الخليطِ الشطُرْ وفيمن اقامَ من الحيّ هرْ

والتسميط في هذا القول:

توهمت من هند معالم اطلال
عفاهن طول الدهر في الزمن الخالي

---

(١) يستشهد العسكري، صاحب الصناعتين، بجميع هذه الابيات، في فصل التشبيه من كتابه، طبعة الازهر، بين ص ٢٣٢ وص ٢٣٧

مرابع من هند خلت ومصائف

يصيح بغاها صدى وعوازف

وغيرها هوج الرياح العواصف

وكل مسف ثم آخر رادف

باسحم من نوء السماكين هطال[1]

وسترى بعضهم يتمثل به على سعة تأثيره في الشعراء كهذا القول:

فلو ان ما اسعى لادنى معيشة

كفانى ولم اطلب قليل من المالِ

ولكنما اسعى لمجد مؤثلٍ وقد يدرك المجد المؤثل امثالي

اخذه خفاف بن الغصن البرجمي فقال:

فلو ان ما اسعى لنفسي وحدها لزادٍ يسير او ثيابٍ على جلدي

لأُبتُ على نفسي وأبلغَ حاجتي

من المالِ مالٌ دونَ مالي الذي عندي

ولكنما اسعى لمجدٍ مؤثلٍ

وكان ابي نال المكارم عن جدّي[2]

---

(١) يستشهد بهذه الابيات والابيات التي تسبقها ابن رشيق في باب القفية والتصريع من العمدة جزء ١ ص١١٥ وص ١١٨

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، طبعة احمد عارف الزين ص٢٠٨ - ٢٠٩

وهذا القول :

كاني لم اركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروىّ ولم اقل لخيلي كري كرة بعد اجفال

توكأ عليه عبد يغوث بن وقاص الحارثي توكؤاً ظاهرا حيث يقول :

كاني لم اركبْ جواداً ولم اقلْ
لخيلي كرّى نفسي عن رجاليا
ولم اسبأ الزقّ الرويّ ولم اقلْ
لايسارِ صدقٍ عظّموا ضوءَ ناريا[1]

وهم بعد هذا موقنون بقوته على اختراع المعاني كما في هذا القول :

سموت اليها بعد ما نام اهلها سموّ حُباب الماء حالاً على حال[2]

وهذا القول :

وما ذرفت عيناك الا لتضربي
بسهميك في اعشار قلب مقتل[3]

وهم مقرون بسبقه الى ابتكارات تعلق بها من لحقه ، وانسحبوا على ذيله فيها ، كما يستفاد من هذا الرأي المضاف الى عمر بن الخطاب ان

---

(١) الوساطة بين المتنبيء وخصومه صفحة ١٥٣
(٢) العمدة لابن رشيق جزء ١ صفحة ١٧٥
(٣) العمدة لابن رشيق جزء ١ صفحة ١٨٧

امرأ القيس سابق الشعراء ، خسف لهم عين الشعر ، فافتقر عن معان عور اصح بصر[١] . ولو شئنا سقنا لك الكثير من اشباه هذا الرأي المرسل ارسالاً ، وانما نمسك اشفاقاً من التطويل . ونتقدم الى رأي آخر ، لعل معالجته اجدى على باحث الادب .

ذهبت فئة من العلماء ، وهم اليمانيه ، الى ان امرأ القيس اول الشعراء[٢] وواطأهم الجاحظ على انه اول من نهج سبيل الشعر ومهل الطريق اليه ، ولكنه خالفهم بان اشرك المهلهل بن ربيعة في اتمام هذا العمل العظيم[٣] ، فما هو موقفنا نحن تجاه علماء اليمانية وتجاه الجاحظ ، بل تجاه علماء الشعر كافة ، لانا لا نحسبهم يخالفون الجاحظ في ان فن القصيد حديث الميلاد ، لعله لا يسبق الهجرة بمائة وخمسين سنة ، او مائتين على الاكثر[٤] .

لا يمكننا الا ان نرميهم بالشطط والشرود . فما كانت سنة النشؤ والارتقاء التاريخي لتسمح بباذغ اقصى اشواط النمو في اسرع من اللفتة . وليس بين قولنا بولد الانسان رجلا متكامل البنية ، يسعى لنفسه ، ويقوم بمؤنته ، وبين قولنا خلق الشعر العربي مع امريء القيس ولم يكن عمره غير قرن او قرنين عند ظهور الاسلام فرق . كلا القولين دال على جهل شديد ، وكلاهما مضحك . والا فيجب ان يكون

---

(١) العمدة لابن رشيق جزء ١ ص ٥٩ وتفسيره ان امرأ القيس فجر للشعراء نبعة الشعر ، وانه وان كان بدئياً من ذوي المعاني العور ، فقد صار بفضل نشأته التزارية مبصر المعاني سليمها

(٢) المزهر للسيوطي جزء ٢ ص ٢٩٦

(٣) الحيوان للجاحظ جزء ١ ص ٣٧

(٤) » » » »

امرؤ القيس فذ العباقرة اخترع الكثير من وزن القصيد اختراعاً ، ونظم الشعر مثلاعباً بالمعاني تلاعباً ، كل ذلك وليس لديه ما يستمد منه سوى عبقريته ، ثم تلته امة كانت لها عصورها المديدة الخصبة فلم تستطع ان تزيد حرفاً على ما اتاه . الحق ان امرأ القيس لم يسلفنا هذا الدين الكبير وحده ، وانما هو درجة من درجات كثيره سبقته ولعل موضعه في راس السلم ، لانه قليلاً ما تطور الشعر العربي بعده . وقليلاً ما اتسعت آفاقه .

ولا نريد الغض من قيمته فهو ، الم يكن راس الطبقة الاولى كما وضعه ابن سلام ، لا يزال من الملهمين الذين غنوا شيئاً من خواطر النفس البشرية ، فصوروا حنينها الى الاستمتاع بالجمال ، وادوا اصداء هتافاتها للطبيعة في الصحراء ، ومثلوا نخوة الشباب البدوى ، وتعلقه بالخيل ، وتولعه بالصيد . فما دامت هناك اعماق تنبض لمخدرات العذارى وتهش كلما رأت غيمة طافية تكاد تمس الارض ، او سيلاً بعيد قرار الهدير ، او جواداً ، او صيداً فسيخلد امرؤ القيس . وسيعيش ذكره ما عاش اثر هذه الحضارة الضخمه التي انبعثت من جزيرة العرب ، واضاءت مشاعلها في العراق وسوريا وشمالي افريقيا والاندلس ، واضافت الى حضارة العالم نوراً

م ص

١٠ - مختارات من شعره

(١) المعلقة

تنقسم معلقة امرىء القيس الى مواقف ثمانية ، مستقلة عن بعضها ، قليلة اللحمة ، على ان كل موقف بنفسه مترابط الاجزاء ، لا يفوته شي من شروط الوحدة . وهي :

(١) — وصف منازل الاحبة ، وما هي عليه من الاقفار بعدهم ، ثم وصف رحيلهم و كثرة بكائه عليهم ، ثم تذكرهم ، والتحسر على طيب عهدهم .

قِفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسِقطِ اللوى بين الدّخول فحَومَلِ
فتوضحَ فالمقراةِ لم يعفُ رسمها
لِما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ
ترى بَعرَ الآرامِ في عرَصاتها
وقيعانها كأنه حبُّ فُلفلِ

كأني غداةَ البينِ يومَ تحمّلوا
لدى سَمُراتِ الحي ناقفُ حنظلِ

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيهم
يقولونَ لا تهلك اسىً وتجمّلِ

وإنَّ شفائي عبرةٌ مهراقةٌ فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوّل

كدأبكَ من أم الحويرث قبلها
وجارتها أم الرباب بمأسل

اذا قامتا تضوّعَ المسكُ منهما
نسيمَ الصبا جاءت بريّا القرنفل

ففاضت دموعُ العينِ مني صبابةً
على النحر حتى بلَّ دمعي محملي

وهذ الاستهلال بالوقوف على الاطلال لم يشذ عنه شاعر جاهلي ، فنحن نستطيع ان نعده ظاهرة من اقوى ظواهر الادب الجاهلي . وقد تحير الباحث هذه النغمة والصبغة الواحدة التي تتكرر وتتكرر في شتى القصائد ، وقد يحيره هذا التقيد والتقليد وقلة التوسع والتفنن . على انه لا مجال للحيرة . فان الخيال الشعري لا يتلون في صوره واساليبه الا في بيئة خصبة بالمشاهد الطبيعية المتلونة ، وفي حياة متعددة الوجوه زاخرة . واين الصحراء من هذا ؟ وهج شمس الى وهج شمس ،

ومنبسطات رمال الى منبسطات رمال ، ورعيان تحل وترحل الى زعيان تحل وترحل .

(٢) — وصف لهوه مع العذارى في محلة دارة جلجل ، وعقره الناقة لهنّ ، وركوبه خارج هودج عنيزة ، ودعابه لها في الطريق ، وما دار بينهما من الحوار

ألا رُب يومٍ لك منهنّ صالحٍ ولا سيما يومٌ بدارة جُلجل
ويومَ عقرتُ للعذارى مطيتي فيا عجباً من كورها المتحمل
فظلّ العذارى يرتمين بلحمها وشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتّل
تداعين باسم الشيب في عرصاتنا ويوتى الينا بالعبيط المثمل
ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عنيزةٍ
فقالتْ لكَ الويلاتُ انك مُرجلي
تقول وقد مالَ الغبيطُ بنا معاً
عقرتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ
فقلتُ لها سيري وارخي زمامه ولا تبعديني عن جناكِ المعلل
دعي البكرَ لا ترثي له من ردافنا وهاتي اذيقينا جناةَ القرنفل
بثغرٍ كمثل الاقحوان منوّرٍ نقيّ الثنايا أشنبٍ غيرِ اثمل

(٣) — وصف حوار له مع احدى عشيقاته ، وفيه شيء من الجدّ والعفة في الحب ، بل من الشعور الروحاني الذي يبلغ به ان يخيرها

بالانفلات من قيود حبه اذا وجدت في خلائقه ما يسوؤها :

ويوماً على ظهر الكثيب تعذَّرتْ
عليَّ وآلت حلفةً لم تحلَّلِ
أفاطمُ مهلا بعض هذا التدلّل
وإن كنتِ قد ازمعت صرمي فاجملي
وان كنت قد ساءتك مني خليقةٌ
فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل
اغرَّك مني أنَّ حبَّكَ قاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وأنكِ قسَّمتِ الفؤادفنصفُه فتيلٌ ونصفٌ بالحديدِ مكبَّل
وما ذرفتْ عيناك إلاّ لتضربي
بسهميك في اعشارِ قلبٍ مقتَّل

(٤) وصف مغامرة حبية ، يدخل فيها الشاعر بعد هدأة من الليل على مخدرة حسناء ، ويخرج بها من خدرها الى فجو واد ، حيث يأخذ حظه من جميع محاسنها :

وبيضةِ خدرٍ لا يرامُ خباؤُها
تمتَّعتُ من لهوٍ بها غيرَ معجَلِ
تجاوزتُ أحراساً اليها ومعشراً
عليَّ حراصاً لو يُسِرُّون مقتلي

إذا ما الثريا في السماء تعرّضتْ
تعرُّضَ أثناءِ الوشاحِ المُفَصَّلِ
فجئتُ وقد نضتْ لنوم ثيابها
لدى السترِ إلاّ لِبسةَ المتفضّلِ
فقالت يمينَ اللهِ مالكَ حيلةٌ
وما أن ارى عنك الغوايةَ تنجلي
خرجتُ بها أمشي تجرُّ وراءَنا
على أثرينا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّلِ
فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتحى
بنا بطنُ خبتٍ ذي حقافٍ عقنقلِ
هصرتُ بفودَيْ رأسها فتمايلتْ
عليَّ هضيمَ الكشحِ رَيّا المخلخلِ
مُهفهفةٌ بيضاء غيرُ مفاضةٍ ترائبها مصقولةٌ كالسجنجلِ
تصدُّ وتُبدي عن اسيلٍ وتتقي بناظرةٍ من وحشِ وجرةَ مطفلِ
وجيدٍ كجيدِ الريمِ ليس بفاحشٍ
إذا هي نصّته ولا بمعطّلِ
وفرعٍ يزينُ المتنَ اسود فاحمٍ

أثيثٍ كقنو النخلة المتعثكل
غدائرُهُ مُستشزراتٌ الى العُلا
تضلُّ المدارى في مُثنى ومُرسل
وكشحٍ لطيفٍ كالجديل مخصّرٍ
وساقٍ كأُنبوب السقيّ المذلل
وتضحي فتيتُ المسك فوق فراشها
نؤُوم الضحى لم تنتطق عن تفضل
وتعطو برخصٍ غيرِ شثنٍ كانه
اساريعُ ظبيٍ او مساويكُ إسحل
كبكر المقاناة البياض بصفرةٍ
غذاها نمير الماء غيرُ المحلل
تُضيءُ الظلام بالعشاء كانها منارةُ ممسى راهبٍ متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابةً اذاماسبكرّت بين درع ومجول
تسلّتْ عمايات الرجال عن الصبا
وليس فؤادي عن هواها بمنسل
الا ربَّ خصم فيك الوى رددته
نصيحٍ على تعذاله غيرِ مؤتل

(٥) وصف الليل، وكثافة ظلامه، وشدة وطأته وعدم تزحزحه

وليل كموج البحر ارخى سدوله
علي بانواع الهموم ليبتلي
فقلتُ له لما تمطّى بصلبه واردف اعجازاً وناءَ بكلكل
الا ايها الليلُ الطويل الا انجلِ
بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأمثل
فيا لكَ من ليل كأنَّ نجومه بكلِّ مغارِ الفتل شدَّتْ بيذبل
كأنَّ الثريا علّقت في مصابها بأمراس كتانٍ الى صمِّ جندل

ويحسن بنا الالتفات الى شدة الخلاف الذي وقع حول هذا الوصف لليل، ووصف النابغة في ابياته :

كليني لهمٍ، يا اميمةَ، ناصبٍ وليلٍ اقاسيه بطيء الكواكبِ
تطاولَ حتى قلتُ ليس بمنقضٍ وليسَ الذي يرعى النجوم بآيب
وصدرٍ أراحَ الليلُ عازبَ همه تضاعفَ فيه الهم من كل جانب

فقد قيل ان الوليد بن عبد الملك تشاجر مع اخيه مسلمة في ايهما اجود، فرضيا بالشعبي حكما، فكان حكمه بجانب امريء القيس [خزانة الادب جزء ٢ ص ١٢٢ — ١٢٣] ونحن نذهب مذهب الشعبي، ونرى ان شاعرنا وفق الى ما لم يوفق اليه النابغة في تصوير طول الليل وضجر النفس منه . فهناك هذا الظلام الطاغي طغيان موج البحر، وهناك هذه السدول المرخاة بانواع الهموم، وهناك هذا

الصلب والعجز والكلكل الرابضة ربوضاً ثقيلاً ، وهناك هذه النجوم الثابتة ثبوت المشدود الى جبل بحبل وثيق ، وهناك هذه الثريا المعلقة في مقامها بامراس تعليقاً مكيناً فهي لا تتحرك ، قل هناك هذا الهول الشامل الممثل بصور محسوسة ملموسة لا تملك النفس الا ان تقشعر عندها . ثم هناك هذه الهتفة القانطة بالليل ان يفسح الطريق للصباح وكل ذلك قد قصر عنه النابغة ، ولم يأت بما يذكر سوى بطء سير الكواكب ، وتزايد الهموم على صدره

(٦) — وصف الوادي المقفر ، والذئب العاوي ، وقد جارينا القدماء على الشك في صحة نسبته الى امريء القيس :

وقربة اقوام جعلتُ عصامها على كاهلٍ منى ذلولٍ مرحل
ووادٍ كجوفِ العير قفرٌ قطعته به الذئبُ يعوي كالخليعِ المعيل
فقلتُ له لما عوى انّ شأننا قليلُ الغنى ان كنتَ لما تموّل
كلانا اذا ما نالَ شيئاً افاته

ومن يحترث حرثي وحرثك يهزل

(٧) — وصف الفرس ، وسرعة جريه ، وشدة اكتنازه ، وقوة صهيله ، وحسن تقاطيعه الجسدية ، ثم وصف سرب الطرائد وانطلاق الفرس وراءه للصيد ، وظفره ببعضه ، وقعود الشاعر الامير وحاشيته للاكل منه :

وقد اغتدى والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيدِ الاوابدِ هيكل
مكرٍّ مفرٍّ مقبلٍ مدبرٍ معاً

كجلمودِ صخرٍ حطّه السيلُ من عل

كُميتٍ يزلُّ اللبدُ عن حال متنه

كما زلّتِ الصفواءُ بالمتنزّل

على الذّبل جيّاشٍ كأن اهتزامه اذا جاش فيه حميهُ غلي مرجل

مسحٍّ اذا ما السابحات على الونى اثرن غباراً بالكديد المركل

يزلُّ الغلامُ الخفُّ عن صهواته ويلوي باثواب العنيف المثقل

دريرٍ كخذروف الوليد امرّه تتابع كفّيه بخيطٍ موصّل

له ايطلا ظبيٍ وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

ضليعٌ اذا استدبرته سدّ فرجه

بضافٍ فويقَ الارضِ ليسَ بأعزل

كان على المتنين منه اذا انحى

مداكَ عروس او صلايةَ حنظل

فعنّ لنا سربٌ كان نعاجه عذارى دوارٍ في ملاءٍ مذيّل

فأدبرن كالجزع المفصل بينه بجيد معمٍّ في العشيرةِ مخول

فألحقنا بالهاديات ودونهُ جواحرها في صرّةٍ لم تزيل

فعادى عداءً بين ثور ونعجة دراكاً ولم ينضح بماءٍ فيغسل

وظلّ طهاة اللحم من بين منضج

صفيفَ شواءٍ او قديرٍ معجلِ

ورحنا يكاد الطرفُ يقصرُ دونه

متى ما ترقَّ العينُ فيه تُسهلِ

كان دماءَ الهاديات بنحره عُصارةُ حنّاءٍ بشيب مرجلِ

فبات عليه سرجهُ ولجامهُ وبات بعيني قائماً غير مرسلِ

(٨) — وصف البرق والمطر والسيل على مرتفعات نجد :

أَصاح ترى برقاً أُريك وميضه

كلمعِ اليدينِ في حبيٍّ مكلّلِ

يضيءُ سناه او مصابيح راهب امال السليطَ بالذبال المفتلِ

قعدت واصحابي لهُ بينَ ضارج وبينَ العُذَيبِ، بُعدَما متأمّلِ

على قطنٍ بالشيم ايمنُ صوبه واَيسره على الستار فيذْبلِ

واضحى يسحُّ الماءَ حول كتيفة

يكبُّ على الاذقان دوح الكنهبلِ

ومرَّ على القنّان من نفيانه فأنزل منه العُصمَ من كل منزلِ

وتيماءَ لم يترك بها جذع نخلة ولا أُطماً إلا مشيداً بجندلِ

كان ثبيراً في عرانين وبله كبيرُ أُناس في بجاد مزمّلِ

كأن ذُرى رأس المجيمر غُدْوة

من السيل والغثاء فلكة مغزل

والقى بصحراء الغبيط بعاعه نزول اليماني ذي العياب المحمل

كأنّ مكاكي الجواء غدية صبحن سلافاً من رحيق مفلفل

كأن السباع فيه غرقى عشية بارجائه القصوى انابيش عنصل

وهنا لا بد ان نقول كلمةً في تقدير هذه المعلقة جملةً .

فاما القدماء ، او بعض القدماء ، فلا يشكون انها كتبت بماء الذهب وعلقت مع اخواتها في استار الكعبة [العقد الفريد جزء ٣ ص ٣٧٩] ، ولا يشكون انها لم تفضل هذا التفضيل الا بعد ان أنشدت في سوق عكاظ ، وحكم قضاة الشعر فيه بجودتها الخارقة [ينقل ذلك نكلسون ص ١٠١] . ونحن نتهم هذه الرواية اتهاماً شديداً ، بل ننفيها ، لاسبابٍ فرغ منها البحث الحديث ، وهي تُلخص اولاً : بتأخر نشوء هذه الرواية ، وسكوت المتقدمين عنها بالاجماع مع انهم حقيقون باستغلالها لو كان لها نصيب من الصحة ، وثانياً : بمناقضتها لروح البداوة المتمرّدة التي لا يعقل معها ان يخضع الشعراء ، او ترضى قبائلهم بهذا الخضوع ، لقضاة اجانب عنهم ، وفي الامر ما فيه من مسّ الكرامة [راجع نكلسون ص ١٠٢] . على انا لا نملك ان نستنتج منها — سمّها اسطورة ان شئت — نفاسة المعلقات ، او اعتقاد القدماء بنفاستها ، ولعلنا لا نخطىء اذا زعمنا الاسطورة نفسها نتيجة هذا الاعتقاد ، وقديماً عرفت العقلية البشرية بتجسيد ما تعتقده في اساطير تدور على السنتها ويتناقلها الخلف عن السلف . والرأي الراجح

ان كلمة معلقة من كلمة عِلق ، معناهـا الشيء الثمين الكثير القيمة ، دعي كذلك اما لان الانسان يتعلق به تعلقاً شديداً ، واما لانه يُعلق في محل شريف او بارز الاهمية [نكلسون ص ١٠١] هـذا ، وقد افتنّ القدماء في مدح معلقة امرىء القيس خاصة كل افتنان ، فقالوا اشهر من « قفانبك » وقالوا « وقف واستوقف وبكى واستبكى » في بيت واحد يعنون المطلع .

واما الدكتور طه حسين فليس يعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل اكثر من هذه القصيدة [في الادب الجاهلي ص ٢١٩]

واما المستشرقون فقد تباروا في الاشادة بفاخر تعبيرهـا ، وبديع صورها ، وحلاوة انسجام قصيدها ، وسحر الوانها وافانينها ، واشادوا ، فوق كل شيء ، بما اوحاها من الشعور بمرح الفتوة ومجدهـا [نكلسون ص ١٠٥]

فلنصرف عنا رأي القدماء ولنسه ، فان امامنا فجوة هائلة جديرة ان تشغلنا عن كل شيء . الدكتور والمستشرقون ! اذا كان الدكتور مصيباً ، فما هو خطب المستشرقين ؟ أهم حمق بُله ؟ واذا كان المستشرقون مصيبين ، فما هو خطب الدكتور ؟ أهو فاسد الحاسة الفنية ؟ نستغفر الله ! طه حسين شيخ المجددين في البحث الادبي فاسد الحاسة الفنية ؟ ! لا ثم لا ، ولكن له اسلوباً في الوصول الى اغراضه من الغرابة بمكان . فقف معي نتفهمه ، ثم لا تستنكر بعد ذلك وقوعه في مثل هذه الورطات . يعتقد ان هذا الشعر الذي نردده على انه لامرىء القيس ليس من هذا الرجل في شيء . ويعتقد انه من افتعـال الرواة ، او ان الرواة فككوا اجزاءه بزياداتهم تفكيكاً ، واخفوا حقيقته

بتبديل الفاظه اخفاء . واذن ، فيجب ان يكون هذا الشعر متعملاً متكلفاً بقطع النظر عنه ، وليس ذلك فقط ، بل يجب ان لا يعرف شعر يظهر فيه التعمل والتكلف اكثر منه ! وهكذا يضع الدكتور غرضاً نصب عينيه ، ثم يمضي على وجهه ، فاذا اعترضته عقبة ، فبدلاً من ان تحمله على تلطيف رايه او تعديله ، التمس الوجوه لازالتها ، وما اسرع ما ينجح في هذا الالتماس ، دون ان يمس رأيه ولو مساً رفيقاً ، كأنه يقين ابقن ، وكان كل شيء يجب ان يخضع لتعزيزه واظهار صحته

وبعد ، فالمستشرقون مصيبون اذ وصفوا معلقة امرىء القيس بما وصفوها .

(٢) شيء من اللامية

في اللامية مواقف ثلاثة

١ — يحيي الشاعر طلل الاحبة ، ثم ينعطف الى شيء من الشكوى ثم يذهب في تذكر احدى عشيقاته وايامها الصالحات :

ألا عِمْ صباحاً ايها الطللُ البالي
وهل يعِمَنْ من كان في العصرُ الخالي
وهل يعمن إلاَّ سعيدٌ مخلدٌ قليل الهمومِ ما يبيت باوجال
وهل يعمن من كان احدثُ عهده
ثلاثينَ شهراً في ثلاثةِ احوال

ديارٌ لسلمى عافياتٌ بذي الخال
الحَّ عليها كلُّ اسحمَ هطال

وتحسبُ سلمى لا تزالُ ترى طلا
من الوحشِ او بيضاً بميثاءَ محلال

وتحسبُ سلمى لا تزالُ كمهدنا
بوادي الخزامى او على رأسِ او عال

ليالي سلمى إذ تريكَ مقصباً
وجيداً كجيدِ الريم ليسَ بمعطال

٢ — وهو اخصب مواقف القصيدة واغناها ، فيه يتجسم امرؤ القيس تجسماً هائلاً بوصفه المادي ، وحبه الشهواني ، واسلوبه القصصي . سرعان ما يستهل الشاعر بتعيير امرأة له بالتقدم في السن ، وعدم لياقة اللهو به ، حتى يمضي في تكذيبها وضرب الامثال لها على مهارته واغراقه في اللهو ، فيحدثها عن آنسة حسناء مما اليها تحت جنح الليل ، وتمتع بها واغاظ زوجها ، فهو يضمر له القتل لو يستطيع الى ذلك سبيلا . ثم يحدثها عن عذارى ولج عليهن البيت في يوم دجن ، غير انه صرف الهوى عنهن ، لا عفة ، بل خشية من الردى ، ومن الشيخ الغيور والدهن . وينتهي الموقف بابيات قلقة في موضعها لا نظنها الا من اللامية الاخرى التي يزعم الرواة انه قالها في طريقه الى القيصر ، والتي رجحنا انهم خلطوا بينها وبين اختها ، وذلك لما تبديه من نفس رجل كان في ترف

ورخاء وآل الى خشونة مضيق ، فهو يغمض عينه في تذكر امسه ، ثم يفتحها على يومه ، فيهتف متألماً كأني لم انعم ولم اذق لذة :

ألا زعمت بسباسةُ اليومَ انني
كبرتُ وان لا يحسنَ اللهوَ امثالي

كذبتِ لقد أُصبي على المرءِ عرسه
وامنعُ عرسي ان يزنّ بها الخالي
ويا رُبّ يوم قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأنها خطُّ تمثال
يضيءُ الفراشَ وجهها لضجيعها كمصباحِ زيتٍ في قناديل فتّال
كأن على لبّاتها جمرَ مصطلٍ
اصابَ غضىً جزلاً وكفّاً باجزال
وهبّت له ريحٌ بمختلفِ الصوى صباً وشمالٌ في منازل ذبّال
إذا ما الضجيعُ ابتزّها من ثيابها
تميلُ عليه هونةً غير معطال
كدعص النقا يمشي الوليدانِ فوقه
بما احسبا من لِينِ مسٍ وتسهال
لطيفةِ طي الكشحِ غير مفاضة اذا انفتلت مرتجةً غير متفال
اذا ما استحمّت كان فيضُ حميمها

على متنتيها كالجمان لذي الحال

تنوّرتها من اذرعات واهلها بيثرب ادنى دارها نظرٌ عال

نظرتُ اليها والنجومُ كانها مصابيحُ رهبانٍ تشبُّ لقفّال

سموتُ اليها بعد ما نام اهلها سموَّ حبابِ الماء حالاً على حال

فقالت سباكَ اللهُ انك فاضحي

الستَ ترى السمّارَ والناسَ احوالي

فقلت يمينَ اللهِ أبرح قاعداً ولو قطعوا رأسي لديك واوصالي

حلفتُ لها باللهِ حلفةَ فاجرٍ لناموا فما إن من حديث ولا صال

فلما تنازعنا الحديث وأسمحت هصرتُ بغصن ذي شماريخ ميال

وصرنا الى الحسنى ورقَّ كلامُنا

ورُضتُ فذلّتْ صعبةً اي تذلال

فاصبحتُ معشوقاً واصبح بعلُها

عليه قتامٌ كاسف اللونِ والبالِ

يغطُّ غطيطَ البكرِ شُدَّ خناقه

ليقتلني والمرءُ ليس بقتال

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زرق كانياب اغوال

وليس بذي رمح فيطعنني به وليس بذي سيف وليس بنبّال

وقد علمت سلمى وان كان بعلها
بأنّ الفتى يهذي وليس بفعّال

وماذا عليه لو ذكرت اوانساً كغزلان رمل في محاريب اقوالي
وبيت عذارى يوم دجنٍ ولجته يطفن بحُبّاء المرافق مكسال
قليلة جرس الليل إلا وساوِسا وتبسم عن عذب المذاقة سلسال
سباط البنانِ والعرانين والقنا لطافِ الخصور في تمامٍ وإكمال
نواعم يتبعن الهوى سُبل الردى يقُلن لاهل الحلم ضُلاً بتضلال

صرفتُ الهوى عنهنّ من خشية الردى
ولستُ بمقليّ الخلال ولا قالي

الا يحبس الشيخ الغيور بناته مخافة جنبيّ الشمائل مختال
يُقصرُ عنهنّ الطريقَ وغوله قتيل الغواني في الرياط وفي الخال
كاني لم اركب جواداً للذّةٍ ولم اتبطن كاعباً ذاتَ خلخال
ولم اسبأ الزقّ الرويّ ولم اقل لخيلي كُرّي كرّة بعد اجفال
ولم اشهد الخيل المغيرة بالضحى على هيكل نهدِ الجزارة جوّال

٣ — وفيه وصف غدوة من غدوات الشاعر الامير الى الصيد ، كغدوته في المعلقة ، الا ان تلك اغنى واغزر مادة وينتهي هذا الموقف كالموقف السابق بابيات تقفز بالقارىء قفزاً الى لون من المعنى غريب في غير تمهيد ولا توطيء ، فلا يملك ان يعتقد انها دخيلة كغيرها من

الابيات التي المحنا اليها!

وقد اغتدي والطير في وكناتها لغيث من الوسمي رائده خال
تحاماه اطرافُ الرماحِ تحامياً وجاد عليه كل اسحمَ هطال
الخ ...

فلو انَّ ما اسعى لادني معيشة كفاني ولم اطلب قليلٌ من المال
ولكنما اسعى لمجدٍ مؤثلٍ وقد يدركُ المجد المؤثل امثالي
وما المرء ما دامت حشاشة نفسه
بمدركِ اطراف الخطوبِ ولا آلي ؟

انتهى

الفهرس

صفحه

٥ لائحة المصادر

٨ كلمة في مصادر البحث

١٢ التعريف بامرئ القيس

١٧ اسرته ومملكة كندة

٢٣ قصة حياته

٣٠ تحقيق حياته

٣٦ دينه

٤٢ صحة شعره

٥٨ المعقول من شعره — تقديره الفني

٧٥ منزلته

٨١ مختارات من شعره

٨١ (١) المعلقة

٩٣ (٢) شيء من اللامية

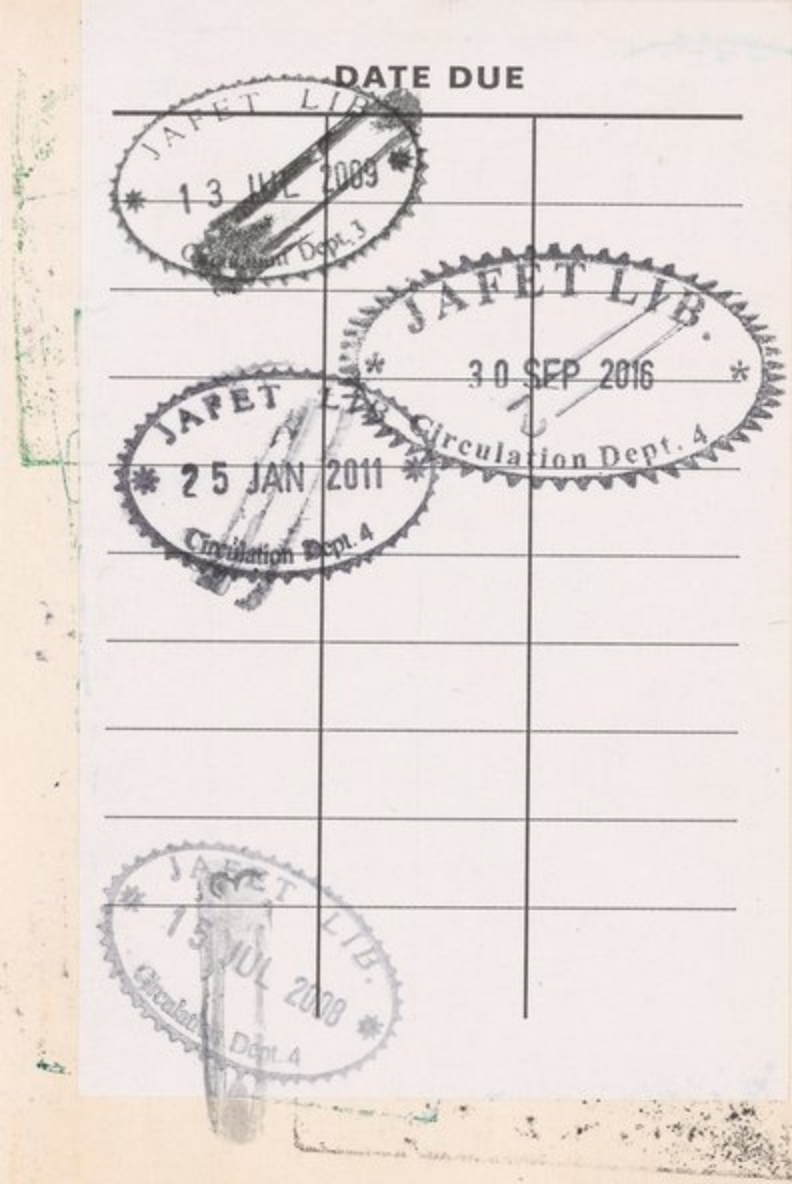
DATE DUE
JAPET LIB.
13 JUL 2009
Circulation Dept. 3
JAPET LIB.
30 SEP 2016
Circulation Dept. 4
JAPET LIB.
25 JAN 2011
Circulation Dept. 4
JAPET LIB.
15 JUL 2008
Circulation Dept. 4

خوری ،رئیف
امرؤ القیس
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01038384
A.U.B.